مبادرة ترجم
T3638

خوان خوسيه ميّاس

امرأتان في براغ

ترجمة عن الإسبانية
أحمد عبد اللطيف

جائزة PRIMAVERA للرواية

منشورات حياة

امرأتان في براغ

الكتاب: امرأتان في براغ

العنوان الأصلي: Dos mujeres en Praga

المؤلف: خوان خوسيه ميّاس

ترجمة: أحمد عبد اللطيف

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

تصميم الغلاف: عبد الفتاح بوشوندوقة

T3638

عدد الصفحات: 208

رقم الإيداع: 1447\4231

الترقيم الدولي: 978-603-05-8792-6

الطبعة الأولى: 2025

هذه النسخة مرخصة بموجب العقد مع مالك الحقوق

© Juan José Millás, 2002

Published in agreement with Casanovas & Lynch Literary Agency

جميع الحقوق محفوظة

منشورات حياة

يمكن شراء إصداراتنا من المتجر الإلكتروني

hayat-publishing.com

امرأتان في براغ

خوان خوسيه ميّاس

ترجمة عن الإسبانية

أحمد عبد اللطيف

أُهدي هذا الكتاب

إلى إيسابيل

في لحظة تعارف لوث أكاسو وألبارو أبريل، تشابكت حياتهما مثل خيطين في جيب.

لوث، جاءت إلى «ورش أدبية» بعد أن جذبها إعلانٌ في جريدة، وكان ألبارو مَن استقبلها، ودعاها للدخول إلى مكتبٍ صغيرٍ حافلٍ بالكتب في الجدران وعلى الأرضية.

ـ اسمي ألبارو أبريل، كنا تحدثنا بالتليفون.

ـ نعم، قالت هي.

ـ اجلسي حضرتكِ هناك وأنا هنا، أضاف الشاب وهو يشير إلى كرسيين غير مريحين يحيط بكلٍّ منهما طاولة رخيصة.

ـ أشعر الآن بالرغبة في الهروب، اعترفت المرأة وهي تفك أزرار المعطف دون أن تقلعه، فيما كانت تشدُّ الكرسي.

ـ لماذا؟ سأل ألبارو أبريل مبتسمًا.

ـ لا أعرف.

شرح لها الشاب أنَّ النشاط الرئيس في «ورش أدبية» هو دروسٌ في الكتابة الإبداعية.

ـ رغم أننا كذلك نفعل أشياء أخرى، مثل مضمون ما في الإعلان الذي جذبكِ إلينا.

ـ وهل ثمَّة مَن يدرس هنا؟

- سيبدؤون. في برشلونة يعملون، ومنذ أربع أو خمس سنوات حصدوا نتائج جيدة. في مدريد كنا نحن الأوائل. أناس كثيرون، حين يتقاعدون، أو يتمتعون بأوقات فراغ أكبر من العادة، تروق لهم كتابة رواية حياتهم، لكن حتى نكتب، مثل كلِّ الأشياء الأخرى، نحتاج إلى الصنعة... نحن نقدم الصنعة. الناس يقدِّمون حياتهم، ونحن نقدِّم الصنعة. المسألة ليست «الكتابة الجيدة» فحسب، إنَّما اختيار المواد المكتوبة وتركيبها. في الواقع، كتابة سيرة تشبه إلى حدٍ كبير كتابة رواية يمكن أن تُهدَى في النهاية إلى الأبناء والأحفاد، إنَّها أحد أشكال الذكرى مثلها مثل الصور العائلية في ألبوم، أليس كذلك؟

لا بد أنَّ لوث أكاسو فكَرت أنَّه يلوك بمعلوماتٍ محفوظة، كان ألبارو أبريل يبدو صبيًّا يعمل في بيزنس أكبر منه، ربما يتوقف راتبه على أن يأكل الطُعمَ أناسٌ مثلها.

- طيب، أنا لست متقاعدة، عمري يقترب من الأربعين، قالت وهي تبدي هجومًا ربما لم تشعر به.
- واضح أنَّكِ لست متقاعدة، معذرة، أنا أشير فحسب إلى نوعية المستخدمين الأكثر ارتيادًا للمكان، لكنَّ الرغبة في حكي الحياة الشخصية تحدث في أي سن. على أي حال، ما الحكاية التي تودين حكايتها؟

حدَقت لوث أكاسو في الشاب الواقف أمامها، وقالت:

ـ الحقيقة أنّي أصبحت أرملة.

قالت هذه العبارة، *أصبحت أرملة*، وبعد رجفةٍ سريعة انفجرتْ في البكاء لتفاجئ ألبارو أبريل، وقد التزم الصمت وأصابته الحيرة على الجانب الآخر من الطاولة.

شخصٌ ما فتح باب المكتب، وحين انتبه إلى حدوث شيءٍ مريب، أغلقه مرة أخرى واختفى. لقد قمع هذا الفاصل بكاء لوث أكاسو بقوة، حتى أنّها اعتذرت، وهي تمسح دموعها.

ـ يعتقد الناس أنّهم ليحكوا حياتهم ذاتها عليهم أن يبدؤوا من البداية: عام الميلاد ومكانه، إلخ، لكن يمكن البدء من النهاية، أو من الوسط، من حيث يريد المرء. أنا لست متأكدًا أنّ الأشياء تحدث بالتعاقب، واحدة وراء أخرى. كثيرًا ما يحدث أولًا ما يجب أن يأتي في الترتيب الزمني متأخرًا. لو أردتِ حضرتكِ، أو احتجتِ البدء من وفاة زوجكِ، يمكن أن نبدأ منه، ثم نرتحل إلى حيث تحملنا الذاكرة أو العاطفة. أهم شيءٍ أن تتمتع الأحداث التي نختارها بحمولةٍ ذات معنى مهم، حتى تتنفس القصة. أقول ذلك من قناعة تامة بأنّ الحياة، لو كانت شيئًا، فهي: قصة، حكاية تستحق أن تُحكى.

كان ألبارو أبريل يتحدث عن عناصر السيرة كبَيولوجي متخصص في أعضاء الحيوان، ما فاجأه هو شخصيًّا، كأنّه اكتشف الألفة الآمنة بين فعل الكتابة وفعل الحياة. حينئذٍ فُتح الباب مجددًا وأطلّ شخصٌ وأومأ؛ لأنّه نظر في الساعة وقال بتعبيرٍ مستاء إنّه يجب أن

يبدأ حصة، لكن إن أرادت لوث أن تتقدَّم في المشروع فيجب أن يتفقا على المسائل العملية، وأضاف أنَّه عادة ما يعمل بمسجّل، رغم أنَّه يكتب الملحوظات كذلك، وحسب أنَّه يكفي ست مقابلات من ساعة واحدة لكلٍ منها، رغم عدم وجود قواعد ثابتة، ربما تكون أكثر أو أقل.

- ثمَّة مَن يفضّل السيَر القصيرة، ومَن يفضّل السيَر الطويلة. ثمَّة حياة يمكن حكيها في خمسين صفحة، أو في خمسمئة، هذا قرارك.

وافقت لوث أكاسو على كلِ شيءٍ، بما في ذلك سعر ساعة العمل وتكاليف طبع الكتاب، إن أرادت في النهاية عمل طبعة محدودة. كانت تريد أن تغادر؛ لتعود في يوم آخر. ربما كانت تفكّر أنَّها كلَما انتهت أسرع هذه المقابلة التعريفية ستبدأ أسرع المقابلات التالية، بحيث إنَّها ظنت أنَّ النهوض من الكرسي سيكون راحة لها بعد الاتفاق على الحضور في الثانية عشرة كلَّ يوم. رافقها ألبارو أبريل، متعرقلًا في نفسه، حتى باب «ورش أدبية»، وتودّعا بين مجموعاتٍ من الشباب تدخل وتخرج حاملةً كشاكيل وكتبًا.

فيما كانت تعبر الشارع زررت المعطف، ثم فكَّت الأزرار مرة أخرى، بعبث، حين وصلت إلى السيارة، لقد اعتادت أن تخلعه وتضعه في الكرسي الخلفي حتى لا يتكسّر، لكنها كانت تشعر بالبرد فركبت به السيارة هذه المرة. كانت «ورش أدبية» تقع في عمق حارة من الفيلات القديمة تتقاطع مع شارع ألفونسو الثالث عشر،

بالقرب من لوبث أويوس، وكانت تختنق بحاجزٍ معدني يفصلها عن تفريعة من طريق إم 30. عند الدخول للحارة، واسمها فرانثيسكو إكسبوسيتو، كان ثمَّة إشارة مرورية بعلامة «شارع مغلق».

ظلَّت لوث أكاسو شاردة للحظات داخل السيارة، وحين كانت على وشك الانطلاق سمعت خبطًا على النافذة اليمنى، فاستدارت برأسها مخضوضة إلى هذا الاتجاه، ورأت على الجانب الآخر من الزجاج شابةً بعُصابة سوداء على عينها اليمنى، وترتدي جاكتة جلديّة من لون العُصابة نفسها، كانت قصيرة الشعر ومنكوشة.

ـ ماذا جرى؟ سألت لوث، وهي تنزل الزجاج.

ـ هل تتجهين إلى أعلى، نحو ألفونسو الثالث عشر؟

ـ نعم.

ـ هل أركب معك؟

ـ اركبي.

ركبت الفتاة العوراء وهي تلعن البرد، كانت تحمل أيضًا ملفًّا أخضر بأستك، وكتابًا مبتذلًا. انطلقت لوث، وسألت العوراء عن وجهتها.

ـ أي مكان.

ـ هل تدرسين في ورش أدبية؟

ـ جئت لأسأل عن سعر الحصص، لكنها غالية بالنسبة لي.

شرحت العوراء لـ لوث أنَّ جزءًا من سمعة هذه المدرسة يرجع إلى عمل البروفيسور ألبارو أبريل بها، إنَّه كاتبٌ شاب نجح وهو في العشرين بروايةٍ حققت صيتًا كبيرًا رغم مرور خمس سنوات دون نشر عملٍ جديد، وواصلت نميمتها بأنَّه يعيش أزمة تجعله أكثر جاذبية.

- قد أبيع نفسي مقابل أن يعطيني دروسًا في الكتابة، هل هو أستاذكِ؟

- هو كاتب سيرتي، أجابت لوث أكاسو مدهوشة.

- كاتب سيرتكِ؟ ما معنى كاتب سيرتكِ؟

بدأت لوث تشرح للعوراء كيف جاءت إلى ورش أدبية، وفجأة انفجرت في البكاء من جديد.

- آسفة، لا أعرف ماذا جرى لي.

- لا بد أنَّكِ هشَة.

- ليس ذلك، منذ شهرين وأنا محبوسة في البيت، لم أُكلّم أحدًا، ثم قرأتُ إعلانًا عن «ورش أدبية» في الجريدة، واتصلت وحددت موعدًا. شهران دون أن أُكلّم أحدًا، كنتُ على وشك ارتكاب أي شيءٍ... أي شيءٍ أحمق، لكني اصطدمت بالإعلان، والآن أنهار وأبكي، معذرةً.

كانت تقود السيارة على إيقاع البكاء، تضغط على السرعة والفرامل دون أن تبالي بها العوراء.

- ولماذا لم تحدّثي أحدًا منذ شهرين؟

ـ أنا في إجازة طبية بسبب الاكتئاب، أعمل موظفة وقررت ألا أعود إلى المكتب أبدًا، أبدًا، لكن حتى لا أعود أحتاج إلى مزيدٍ من الاكتئاب. الطبيب يلاحظ حين تتحسن حالتكِ، هكذا ظللت لشهرين أتدرب على الاكتئاب لأستمر في الإجازة، لكنَّ الصيام عن الكلام لشهرين كثير، يُصيب بالجنون، حينها رأيت إعلان كتابة السيرة الذاتية، واتصلتُ بـ «ورش أدبية» وطلبتُ موعدًا.

فيما تتحدث، كانت تقود السيارة بطريقةٍ دائرية، هكذا عادت تقريبًا لنقطة الانطلاق نفسها، كانت تلف بالسيارة وبالحوار، وساد الضباب، وأغرق المطر الزجاج الأمامي بقطراتٍ سميكة كانت المسّاحات تبعدها على الجانبين. وفي تلك الليلة، أمطرت ثلجًا بجود، كما تثلج في مدريد، ولا تزال بقايا المادة البيضاء عند النواصي.

ـ ألبارو أبريل مشهورٌ إذن؟ سألتْ، وهي تلتفت إلى العوراء.

ـ معروف، بالخصوص في الأوساط الأدبية، ومشهور بأنَّه ملعون، وكلُّ الناس ينتظرون روايته الثانية، لكنه لن يكون أستاذي، حظي سيئ.

ـ وأنتِ ماذا تكتبين؟

ـ تحقيق، رواية، على حسب. الآن أعمل على مادة حول آلام القطنية.

ـ أنا مصابة بآلام القطنية، قالت لوث أكاسو.

ـ إذن سأحتاج إلى التحدث معكِ، هل أنتِ مستعجلة.

ـ مستعجلة على ماذا؟ أقول لك منذ شهرين لم أتكلم مع أحد.

وفجأة توقفت المسّاحات عن طرد الماء، ونشرت في السيارة، بين المرأتين، نوعًا من السكينة المتدفقة، شبه موجة من السعادة.

كانت لوث أكاسو تعيش في ماريا مولينِر، وهو شارع ضيق من بيوتٍ قديمة من دون مصعدٍ عاشت بفضل المضاربة العقارية، يقع الشارع خلف معهد موسيقا برينثيبي دي بيرجارا. صعدت بالسُّلم، ومن ورائها الفتاة العوراء للحديث عن ألم القطنية، وأدخلت المفتاح في الباب بيد متوترة، وحين فتحت، دخلت وتبعتها ضيفتها.

رغم الظلام، كان البيت مضاءً بوهجٍ غامض، يشبه ما تصدره اليراعات في أعماق الليل، كان الممر قصيرًا، وفي أحد جانبيه باب المطبخ، وعلى الجانب الآخر باب الحمّام، ثم صالة صغيرة تؤدي إلى غرفتين ببابَين متجاورَين ومغلقين. من نافذة بهذه الصالة، وعبر فتحاتٍ بين الستائر، تظهر البيوت المواجهة قريبة في متناول اليد، بشرفاتٍ صغيرة لا يطلُّ منها أحد. حين دخلت المرأتان، بدأ المطر بكثافةٍ ما، وتشبّع الواقع بجوٍّ يشبه الماكيت، عندئذٍ سألت لوث الفتاةَ العوراء عن اسمها، فأجابت بأنَّها ماريا خوسيه.

ـ ماريا خوسيه، كررت لوث كأنَّها تعاني من مشكلة في الذاكرة، وأنا اسمي لوث.

ـ لوث؟

ـ نعم، لوث أكاسو.

ابتسمت ماريا خوسيه بجانب فمها الأيسر، وحين اقترحت عليها لوث أن تأكل شيئًا، إذ كانت الثانية والنصف، وافقت بالجانب نفسه. أحيانًا، وليس دائمًا، تتكلم وتضحك بنصف جانب ليس أكثر، وبالكاد تستخدم ذراعها اليمنى، وتحت الجاكتة الجلد السوداء ارتدت تيشيرتًا ضيقًا، وبنطلون جينز. جهزتا طبق سلطة كبير وطبق سجق، وجلستا إلى مائدة المطبخ، وتحدّثتا عن ألم القطنية. كان المطبخ يطلُّ على فناءٍ داخلي تتسلل قتامته إلى المكان عبر بابٍ زجاجي يؤدي إلى المنشر، لكنها قتامة مشرقة وحامية كذلك.

- لا أريد أن أخرج أبدًا من هذا المطبخ، قالت ماريا خوسيه، أشعر أننا في براغ.

- في براغ؟

- نعم، لم أزر براغ، لكني أتخيلها بشوارع ضيقة وأفنية داخلية، تروق لي الشوارع حين تبدو ممرات.

- لماذا ترغبين في الكتابة عن ألم القطنية؟

- لأنّي سمعت الكلمة في الأوتوبيس وظلّت في ذهني تتجول مثل ذبابةٍ داخل زجاجة. ثمّة كلماتٌ تدخل ولا تجد مخرجًا، لم أكن أعرف ما معنى ألم القطنية، لكنَّ رنينها يروق لي: قطنية، قطنية. في تلك اللحظة قررت كتابة تحقيق عنه، أو ربما كتاب. ومنذ أنهيت الدراسة الثانوية، كرّست وقتي لأخذ دوراتٍ في مجالاتٍ متنوعة؛ لأُشعِر نفسي بأنّي مشغولة، لكني كنت أحتاج إلى أن أستسلم كليةً لشيءٍ واحد، حتى لو كان ألم

القطنية. وذات صباح تستيقظينَ وتنتبهينَ إلى أنكِ تأخرتِ عن كلِّ شيء.

ـ حقيقةً، تستيقظين وقد تأخرتِ عن كلِّ شيء، كررت لوث وهي تقدّم لها قليلًا من الماء.

ـ كان أبواي لا يفعلان إلا الضغط عليَّ لأقرر مرة واحدة ماذا أريد أن أكون، وحينها قلت لهما أريد أن أكون كاتبة. وبالمُصادفة، يوم سمعت كلمة «ألم قطنية» في الأوتوبيس، وجدت في صندوق البريد إعلانًا من عيادة متخصصة في تقويم العمود الفقري بالتدليك. في تلك الليلة قالوا في التلفزيون إن المحكمة ألغت حكمًا لأن المتهم الرئيس كان يعاني من نوبة ألم في القطنية. أحيانًا أفكر في شيءٍ، ثم تحدث مظاهره، يحدثُ معي ذلك باستمرار، لكن لا يمكنني إثباته.

ـ أفهمكِ، قالت لوث.

ـ بدأت القطنية تطوّقني بطريقة ما، وتأكدت فيما تكمن. كانت عبارة عن ألم منتشر يتمركز هنا، بين الحافة السفلية للأضلاع، وعُرف الحَرقفة، انظري، كأنَّ من الممكن أن يكون داخل الجسد شيءٌ يُسمَّى عُرف الحرقفة. انتبهتُ حينها إلى أنَّ الموضوع اتخذ بعدًا فانتازيًّا دون إرادتي، إذ من خصائص ألم القطنية، بالإضافة، ألا يهاجم عضوًا محددًا، وإنَّما منطقة غامضة تُسمَّى «المنطقة القطنية». المنطقة القطنية: لو

تأملتِ، يشبه رنينها اسم جغرافية أسطورية، لكنها، بالإضافة إلى ذلك، تشير إلى الألم. منطقة مجهولة في النهاية، ينفخ فيها الألم بدلًا من الرياح... في الليل، في السرير، فكرتُ أنَّ إصراري على الكتابة عن أشياء أجهلها قد يعني كذلك أنَّي أريد أن أكتب بجزءٍ بداخلي لا يعرف كيف يفعل ذلك. أما بصفتي أجيد الكتابة فقد رأيت أين يمكن أن بلغ، إذ في الفترات الأخيرة، بين دورة في المحاسبة، ودورة أخرى في العلوم الاجتماعية، كنت كتبتُ رواية قصيرة وأرسلتها إلى كل المسابقات الأدبية المتاحة، وأشاروا إليّ جميعًا، رغم أنَّي لم أفز في أيٍّ منها. وفكرتُ في الخطة التالية: سأغطي عينًا يمنى بعُصابة، وأشلّ ساق هذا الجانب وذراعه، وأجبر نفسي على فعل كلِّ شيءٍ باليد اليسرى.

ـ أنتِ لستِ عوراء إذن؟

ـ بالتأكيد لا، لكني فكرتُ أنَّي عشتُ حياتي معتمدة بإفراطٍ على الجانب الأيمن، وأنَّي كررت أماكن وكلماتٍ وكليشيهات، أشياء بلا أهمية. المسألة أنَّي، أقولها هكذا، كنتُ أريد كتابة نصٍّ أيسر، نصٍّ أفكر فيه من أعلى إلى أسفل عبر جانب من جسدي ظلَّ مهجورًا، نصٍّ تكون أصالته مضمونة، إن لم يحقق أشياء أخرى، ثمَّة رسّامون يفعلون ذلك حتى يهربوا من التكرار، يبدؤون الرسم باليسرى حين يكون رسمهم باليمنى متوقعًا.

ـ أنا عسراء، قالت لوث.

ـ ولماذا تأكلين باليمنى؟

ـ لأنّي عَسْراء متمردة، أستخدم اليد اليسرى حين أكون بمفردي فحسب.

ـ يفتنني العُسَراء، حقيقةً؛ لأنكم تضطرون إلى تعلُّم العيش في عالم صنعه الأيمن، عالم يسير بالعكس بطريقةٍ ما. حياتكم عملٌ فني، بالذات لو فكّرنا أنكم منذ الصحو وحتى المنام لا تفعلون شيئًا آخر إلا مواجهة القواعد، والأعراف، والمستقر.

ـ لم أفكّر في ذلك من قبل.

ـ مفتاح النور، أُكرة الباب، أدراج المكتب، حنفية الحوض... كلُّ شيءٍ مُعَدٌّ من أجل وصول اليد اليمنى بسهولة، أما اليسرى فعليها أن تبذل جهدًا مضنيًا لتحصل على النتائج نفسها. كلُّ حركةٍ من حركات الأيسر تمثل ضربة فرشاةٍ في عمل فني، كلُّ أيسر يرسم الكلمات، على سبيل المثال، بدلًا من كتابتها.

ـ ولا حتى في ألف عام كان سيخطر لي أن أُثير الاهتمام كعَسْراء. شكرًا جزيلًا، قالت لوث ضاحكةً.

ـ أنا أعرف جيدًا ما يعنيه هذا الجهد، إذ كنتُ وأنا صغيرة بعينٍ كسولة، العين اليسرى تحديدًا، وحينها غمّوا لي العين اليمنى؛ ليجبروها على النشاط، وللعجب أنّها نشطت. حين تأملت العالم بعين واحدة، وعند تلاشي تأثير العمق والسطح، كان

يبدو وجه مدينة مجهولة. كنت أتحرك من طرفٍ إلى طرف فيه، دائمًا في المستوى نفسه، أكثر من الدخول في الواقع.

- واقعٌ مسطّح، أشعر أحيانًا أنَّه هكذا أيضًا، حتى وأنا أتأمله بعينين اثنتين.

«لديها غمش»، كانت أمي تقول لصديقاتها، وكنَّ ينظرنَ إليّ بريبة، إذ العين الكسولة لا تتمتع بجاذبية أمراض أخرى، وثمَّة أشخاصٌ تضحكهم حتى. لقد سمعت في مراتٍ كثيرة عبارة «لديها غمش، لديها غمش»... ربما الافتتان الذي أحدثته كلمة قطنية حين سمعتها في الأوتوبيس يأتي من تجربة الطفولة تلك. لديها غمش، عندها قطنية، تخيلي. أضافت وهي تكتب على المفرش بسِن السكين كلمة lumbago، وهي مكتوبة بهذه الطريقة: l› um ‹l bago.

- لا بدَّ أنَّ l› um bago ‹ تعني ojo vago في لغة ما[1].
- يهيأ لي أنَّه نعم، ربما بالكتالونية.
- أو بالرومانية، شيءٌ آخر قررته في ذاك اليوم، بالإضافة لكتابة نصٍّ أيسر، كان كتابة نصٍّ حول الأشياء الواقعية، كنتُ مقتنعة أنَّ إخفاقي السابق ككاتبة نابعٌ من أنِّي أخترع قصصًا لا تلمس الناس، وأدركتُ أنَّ الناس تحب ما هو واقعي. فكرت أنَّ أغلب الكُتّاب يتحدثون عن أشياء لم تحدث، بالإضافة إلى

(1) كلمة lumbago تعني قطنية، وojo vago الغمش، أو العين الكسولة. (م)

أنَّهم يكتبون باليد اليمنى، والساق اليمنى، والذهن الأيمن. في تلك الليلة، في السرير، حين كان ينبغي أن أنام، جلست مثارة بين الملاءات، وأقسمت أن أكون كاتبة عسراء وواقعية، والمفارقة تستحق.

ـ لكن كُلي شيئًا، يا امرأة، قالت لوث أكاسو لمّا انتبهت إلى أنَّ ماريا خوسيه لم تتذوق الطعام.

ـ سأفعل، سآكل. رحتُ لأرى تكلفة الدراسة في ورش أدبية؛ لأنَّ ألبارو أبريل نجح برواية واقعية، لا أعرف إن كانت عسراء، لكنها واقعية.

ـ يبدو ذكيًا.

ـ مَن؟

ـ ألبارو أبريل.

ـ أنا أعتقد أنَّ الذكاء هو ما منعه من كتابة رواية أخرى بعد هذا النجاح. «الحديقة» أعجبت كلَّ الناس، بمَن فيهم مَن انتقدتهم. كانت رواية مادية امتدحها بإفراطٍ أنصار الروح، ولأنَّه تلقى تكريمًا كبيرًا، قرر ألا يكتب حتى يتأكد ماذا حدث له، هكذا يقولون. لعله يريد كتابة شيءٍ أعسر كذلك، ولم يعثر على الطريقة، لكن حسنًا، كنا نتكلم عن القطنية.

ـ في الواقع ليس عندي قطنية، قالت لوث بخجل، قلت لكِ ذلك؛ لأنَّه راقَ لي أن تصعدي إلى بيتي.

ـ ولستِ عسراء كذلك؟

- ولستُ عسراء.

نهضتْ لوث، وأضاءت نور المطبخ، فرغم أنَّها كانت الثالثة مساءً إلا أنَّها بدت ليلًا. ابتلعت ماريا خوسيه ورقة خس دون مضغٍ تقريبًا، وواصلت الحديث.

- لكن ثمَّة مشاكل عملية واجهتُها لأغدو عسراء بغتة، لم أستطع أن أكفَّ عن استخدام يدي اليمنى، وساقي اليمنى دون أن ألفت نظر أبوَي. عُصابة العين أسهل في التبرير بالخصوص لمصابة بالغمش، أو العين الكسولة. أعترف لكِ أنِّي أحبطت في لحظة. يحتاج طموح مشروع مثل مشروعي إلى فراغٍ حرّ فريد لأتممه: ربما بلد أعسر، مدينة عسراء. لكنني لم يكن لديّ فكرة عن شكل المدينة العسراء، رغم وجود أماكن في براغ تبدو لي عسراء.
- وهذا البيت يبدو لكِ أعسر بعض الشيء؟
- بعض الشيء، نعم؛ لذلك قلت لكِ إننا كأننا في براغ.
- الآن أفهمكِ.
- وبعد لف ودوران كثير حول الموضوع، قررتُ أن أقصُر استخدام الجانب الأيسر في الخفاء، في مهام أستخدم فيها عادةً يدي اليمنى. هكذا، في يوم مثل هذا، رنَّ المنبه فأسكتُّه بيدٍ يُسرى، لكنه وقع على الأرض لنقص الخبرة، ثم غسلت أسناني بيدٍ يُسرى، واستحممت وغسلت شعري من دون استعمال يدٍ يمنى، ولا حتى مرة واحدة، وعدتُ إلى

غرفة النوم منهكة، وكلّفت أصابع اليسرى بمهمة تزرير أزرار البلوزة الشاقة، فيما أوكلت لليمنى مهام المساعدة، ولم تمرّ ساعة واحدة على بدء استعمار ضلعي الخالي إلا وبدأتُ أتمتع بمنظورٍ مختلفٍ للأشياء. استغرقتُ فترة أطول في الفطور، ووضعت الزبدة وأنا أقبض بيدي اليسرى على السكين، وأسند الخبز باليمنى. بالتأكيد، لم أعد أمضغ إلا على أسنان الجانب الأيسر وضروسه، وبات للطعام مذاقٌ مختلف، ونسيجٌ آخر. لقد بدأتُ أكتشف عالمًا آخر من الأحاسيس، أمي لم تقل شيئًا، مع أنّها تنظر لي عدة مراتٍ بانطباع الحسرة، أما أبي فليس هنا، يستيقظ فجرًا؛ ليتوجه إلى مركز مِركامدريد لشراء الأسماك، ومن هناك يتوجه إلى محل السمك.

ـ هل لديكم محل سمك؟

ـ نعم، هو أحد أشياء شجعتني لأكون واقعية، لا يمكن أن تكوني سمّاكة، وتكتبي رواياتٍ فانتازية، أتفهمينني؟

ـ محلات السمك لا تبدو لي واقعية.

ـ أؤكد لكِ أنّها كذلك.

ـ من حق كلّ امرأة أن تتلقى الأشياء على طريقتها، أنتِ يبدو لكِ أنّ هنا براغ.

أكلت ماريا خوسيه، وبسرعة، ورقتَي خس، وأبعدت الطبق في جانب.

ـ أحاول ألا آكل، المتصوفة لا يأكلون كما تعرفين.

- لو راق لكِ، نتناول القهوة في الصالة، ردت لوث.

وبعد استرخاءٍ على كنبة الصالة الصغيرة، ظلت كلٌ منهما تتأمل النافذة لبرهة، كان الثلج قد استحال ماءً، وكانت تمطر بكثافةٍ أخاذة.

لمّا أعادت لوث النظر إلى ماريا خوسيه لتقولَ ملحوظة، وجدتها نائمة دون أن تشرب القهوة، غطتها ببطانية، وقبّلتها في جبهتها فيما شمشمت وجهها: كانت قلقة من أن تفوح منها زفارة سمك، لكن لم يكن كذلك، ثم ظلّت تتأملها، وهي تسمع صخب المطر كأنّه موسيقا.

في تلك الليلة، كان ألبارو أبريل قد تلقى دعوة لحفلٍ في بيت ناشره، لم يرقَ له الحضور، لم يكن يروق له قط، لكنه كان يحضر دائمًا خشية أن يغدو مقصيًّا، لو سألوه مقصيًّا من ماذا، لشَعَرَ بالخجل من الإجابة.

وصل متأخرًا خشية أن يكون من الأوائل، وحين دخل كان البيت ممتلئًا، حتى أنَّ مَن فتح له الباب لم يكن المضيف، إنَّما شخصٌ طويلٌ وأحدب، في الستينات، وبكأسٍ في يده وسيجارةٍ بين شفتيه، قال له:

ـ إن لم ترَني، فلا تقلق، فأنا ميت، أنا شبح كاتبٍ ميت. في الحياة، كنت أنشر أعمالي مع مضيفنا، وظللت محبوسًا في حفلاته.

عزّاه ألبارو، وخطا بين الناس نحو الممر، مثل غريق، بخوفٍ من ألا يجد لوحًا خشبيًّا يتكئ عليه ليظل طافيًا. ثمَّة امرأةٌ تُمسك بكأسٍ أيضًا وسيجارةٍ أوقفته:

ـ ألبارو أبريل، سحرتني «الحديقة».

ـ ماذا؟

ـ روايتك، «الحديقة».

ـ شكرًا، قال وواصل السباحة بحثًا عن لوح خشبي.

لم يكن يستاء من امتداح روايته، لكنها منشورة منذ خمس سنوات، وكان مستحيلًا ألا يرد ذكرها من دون الإشارة إلى ما تلاها من جفاف. بعد إطراءٍ من هذا النوع، يأتي السؤال المصيري: هل تعمل في عملٍ جديد؟ لقد تحقق من قبل أنَّهم لا يصدّقونه حين يقول نعم، ولا حين يقول لا. بشكلٍ عام، كان يُنظر إلى صمته بارتياب، بعضهم كان يخشى أن يكتب عملًا عظيمًا، وبعضهم الآخر كان مهووسًا بتأكيد أنَّ ينبوعه نَضَب. عملٌ أول ناجح لا يضمن شيئًا، بالذات لو كان رواية سيَريَة وصادقة. الحد الفاصل بين الصدق والصنعة كان يزداد اتساعًا يومًا بعد يوم.

كان الناس يتحدثون مشكّلين مجموعاتٍ من ثلاثة إلى خمسة أشخاص، ومن طريقة النظر خارج الدائرة كان يبدو أنَّهم مقتنعون بأنَّ المثير للاهتمام يقبع في مكانٍ آخر. وكلُّ برهةٍ، كان ثمَّة مَن ينصرف عن مجموعته مثل فص في برتقالة، وينضم إلى مجموعة أخرى دون أن يكفَّ عن مراقبة المحيط، وكانت الشفاه والعيون تتحركان دائمًا في اتجاهات مختلفة.

كان ثمَّة ساسة، ممثلون، ممثلات، صحفيون، بلٍ وحتى مدرب كرة قدم، كان من السهل نسبيًّا، إذن، الهروب من الكتّاب، وكانت رؤوسهم تطفو متناثرة بين الحشود. واصل ألبارو مسيرة الجموع دون أن يغادر الممر، وعند عبوره أمام غرفةٍ مفتوح بابها رأى خمسة أو ستة أشخاص حول تليفزيون يتابعون مباراة كرة قدم، أحد هؤلاء التفت ونظر إليه نظرة كراهية؛ ربما كيلا ينضم إلى المجموعة، لم

يفعل ذلك، واصل السير حتى نهاية الممر، وكان ينتهي بمطبخ بلا باب، وبداخله أربعة رجالٍ يقهقهون قهقهات رنانة لنكتة أطلقها أحدهم. كان ثمَّة قطع «خامون»[1] بجانبها سكين لمَن أراد أن يأكل، قطعَ لنفسه شريحتين ليفعل أي شيءٍ، فيما كان الأشخاص يواصلون الضحك.

في أثناء ذلك حدَق أحدهم فيه:

ـ أنت ألبارو أبريل، ابني معجب بروايتك جدًّا.

ـ شكرًا.

ـ سأخبره أنَّي رأيتك.

ـ شكرًا.

ترك ألبارو شرائح الخامون، وخرج إلى الممر، لقد سمع واحدة من أكثر العبارات التي تخيفه: ابني معجب بروايتك جدًّا، بمعنى: ابني معجب جدًّا بحماقاتك، «وأنا ألعنك»، قالها بحركة من شفتيه، مذعورًا لعدم عثوره على أحد يتكلم معه؛ إذ بدا له أنَّ الناس بدؤوا يراقبونه. هذه المرة عَبَر من أول بابٍ مفتوح في طريقه، ودخل صالة واسعة مترعة بالكتب، وفي عمقها رأى لاورا أنكوس، مديرة ورش أدبية، رئيسته في العمل، واقفة بظهرها وتتحدث معي. كتابي الأخير، وهو مجموعة تحقيقاتٍ منشورة في الصحف، بيع بشكلٍ جيد،

---

(1) الخامون أكلة إسبانية من لحم الخنزير، على شكل اللانشون أو البسطرمة (م).

وكانت تحاول إقناعي بأن أعطي جلساتٍ عن الكتابة الصحفية في ورش أدبية.

كانت لاورا أنكوس مَن تعهد بتقديم الكتاب، ومزحت بإمكانية أن تتعاقد معي.

ـ لن يكون سيئًا، قال ألبارو أبريل من دون اقتناع.

ـ أي دورة تعطي؟ سألته.

ـ هذا العام أُدرّس بناء الشخصية ـ وأنا فكّرت أنَّه استخدم الفعل يدرّس؛ لأنَّه الفعل الذي يستخدمه مدرّسو الجامعة، لا يتساوى إعطاء دورة مع تدريس دورة. عقدتُ حاجبين لأعبر عن إعجابي، كأني تلقيت الرسالة.

ـ ويكتب سيرة بالتكليف، أضافت لاورا.

احمرَّ وجه ألبارو مثل مراهق، فيما ظلت لاورا تشرح خط العمل الجديد المفتوح في ورش أدبية.

ـ وهل يلقى إقبالًا؟ سألتُ.

حتى الآن تقدَّم شخصٌ واحد، قالت لاورا.

ـ لكنَّ البدايات صعبة دائمًا. حين تصير موضة، سيكون هناك عملٌ للجميع، لكِ أيضًا، إن أردتِ.

ـ ومَن هذا الشخص؟ وجّهت سؤالًا لـ ألبارو.

ـ سيدة، أجاب مستاءً.

ـ هذا الصباح ـأضافت لاورا ضاحكةـ فتحتُ باب مكتبه، وصُعِقت المكتوبَ سيرتها وهي تبكي بحرقة.

- هل شرعتْ في البكاء وهي تحكي حياتها؟ سألتُ وأنا ألقي نظرة على المجموعة المجاورة، وقد انضمَّ إليها للتو مدير تحرير جريدتي.
- الحكاية أنَّ زوجها مات، قال ألبارو. الناس يبكون حين يفقدون أشخاصًا أعزاء.
- «الناس يبكون حين يفقدون أشخاصًا أعزاء»، كررت لاورا أنكوس بسخرية، يا لها من عبارة عظيمة! بعباراتٍ كثيرة هكذا ستُكتب سيرة على المستوى نفسه، ومن ناحية أخرى هذا ما ينقصنا حتى لا نتمزق. أغلب الظن أنَّ المرأة الطيبة تكره زوجها، لكنها الآن تبكي كلّما تذكرته. الأشخاص الأعزاء، عنوانٌ رائعٌ لرواية، تبدو لتولستوي، وربما لتشيخوف. الأشخاص الأعزاء، عنوانٌ ساحر، حقيقةً. في روايةٍ بهذا العنوان يجب أن يظهر كلُّ من يكرههم المرء، بما فيهم هامستر طفل العائلة، ويُكتب العنوان هكذا: *الأشخاص الأعزاء*. بالمناسبة، لقد قتلت هامستر ابني بأن أعطيته كبسولة القلق اليومية، وبالأمس دفنّاه في قصرية جيرانيوم، وأنا ترأست طقوس الجنازة، وأعطيت انطباعًا بأنّي ممزقة. كان رائعًا، القاتل قتل القتيل، ومشى في جنازته، وأظهر الألم، إلخ.

تبادلت مع ألبارو أبريل نظرة وإيماءة صبر، كانت لاورا أنكوس في الأربعينيات، وبعد عدة طلعات شبابية في الأدب، قررت أن تتفرغ للإدارة الثقافية، وانتهت وقد أسست «ورش أدبية»، وهو أول عمل في حياتها استمرت فيه أكثر من عام. حين تكون منتبهة تبدي رصانة، بل وخجلًا، لكنها لم تتوقف عن الشرب في تلك الليلة.

- هل قتلتِ هامستر ابنكِ فعلًا؟ سأل ألبارو.

- أعرف أنَّ مسألة السِّير ستلقى إقبالًا، أجابته والتفتت لي. نصف العالم يرغب في سرد حياته، والنصف الآخر يرغب في الإنصات. من الضروري فحسب أن نوصِّل المستمعين المناسبين بالقصة المناسبة، تذكرا ما أقوله لكما: سنربح في النهاية فلوسًا من المنتجات الثانوية أكثر من دروس الكتابة. سيكون أدب القرن الواحد والعشرين أدبًا صناعيًّا، أو لن يكون. من اللافت أنَّه فيما يحدث الواقع في زمن ما بعد الصناعة، لم يدخل الأدب بعد إلى السوق، نسير متأخرين مئة عام، لكن أن تصل متأخرًا.

كان ألبارو أبريل محرجًا، هكذا التفت لي ليبرر نفسه ويقول إنَّه رغم كونه التقى بسيدة السيرة مرة واحدة فحسب، كان اكتشف فجأة أنَّه من الممكن الخروج منها بكتابٍ عظيم.

- لكن ماذا لدى هذه المرأة ليخرج كتاب عظيم؟ سألت لاورا بعدوانيةٍ صادقة.

- ليس لديها شيء، هنا يكمن سرها، أنها لا تمتلك شيئًا، إنَّها امرأة عادية من العوام، لكن هل تتخيلان النتيجة عند كتابة العادية بشكلٍ دقيق؟
- هذا حدث بالفعل.
- كلُّ شيءٍ حدث بالفعل، لا علاقة.
- بشرط ألا تنسى أنَّ هذا عمل، فافعل ما يروق لك يا قلبي، أضافت لاورا، واختفت وراء مذيع تلفزيوني وتركتنا أنا وألبارو أبريل وحدنا، وبعد ثوانٍ لم نعرف إدارة حوار.
- يبدو أنَّك تعلقت بهذه المرأة، سيدة السيرة، قلت في النهاية.
- نعم، لا أعرف.
- لعل الأمور تسير وتبتكر نوعًا أدبيًّا.
- يجب أن يكون نصًّا صحفيًّا جدًّا.
- أفضل ما في «الحديقة» أسلوبها الصحفي.

لاحظت أنَّها المرة الأولى التي يحدثه فيها شخصٌ كبير عن روايته دون أن يستاء، شعر بالاضطراب والذنب؛ لأنَّي امتدحته قبل أن يمدحني.

- هل تعتقد فعلًا أنَّ لاورا قتلت الهامستر؟
- أنت موهوب أيُّها الشاب، تعرف أهمية الخيط الفالت، ونعم، نعم قتلته.

في أثناء ذلك، ألقى مدير جريدتي نظرة خارج دائرته، والتقت نظرته بنظرتي. تحرك كلٌ منا ليحيي الآخر باليد. أبريل، حين بقي وحيدًا، ابتعد كي لا يبدو مهجورًا، وعاد إلى المطبخ، وكان الأربعة رجال لا يزالون يضحكون. فتح الثلاجة كأنَّه يبحث عن شيء، رغم أنَّه لم يأخذ شيئًا. لم يشرب، وبدا له مضحكًا استخدام ذريعة حمل الكأس في يده، حتى في المواقف الأصعب، كان ألبارو أبريل يؤدي هذه الإيماءات الصغيرة ويعدّها بطولية. عدم التدخين، وعدم الشرب، وعدم الأكل إلا بمقدار ما يأكله في بيته، وعدم الغواية، في النهاية.

في الأثناء، فُتح بابٌ ما كان يبدو غرفة الخزين، وخرج رجلٌ يضحك، انضمَّ إلى المجموعة فيما دخل آخر في الغرفة المربعة. خمّن ألبارو أنَّهم يدخلون هناك لفعل أي نزق. هذه المرة بدا أنَّهم لم ينتبهوا لوجوده، كانوا ينتقدون صاحب البيت وكأنَّه هو غير مرئي، بالتالي جلس على كرسي بار، بجانب الطاولة، على أمل أن يقتحمه أي قرار. وفيما ينتظر، انتبه إلى أعين الرجال اللامعة، وفجأة، بدلًا من أن يقتحمه قرار، شعر باقتحام نوعٍ من النشوة تعرّف إليه في الحال، إذ كان مطابقًا لما يمنحه قربُ الشيطان في رواية لـ مارك توين قرأها مراهقًا في الثانوية، كان قد شعر بهذه النشوة مرتين، أو ثلاثًا من قبل، ودائمًا ما حدث شيء مهم سريعًا. المرة الأخيرة، كانت موتورة، روايته الوحيدة، «الحديقة»، فكتبها في ثلاثة شهور، رغم أنَه قال في المقابلات إنَّه كتبها في عامين. شعر بضرورة العودة إلى البيت، وبدء شيءٍ، بدء شيء.

نهض وسحب من الثلاجة زجاجة مياه معدنية شربها بلذّةٍ غريبة، إذ كانت كلُّ حواسه مفتوحة للتلقي، وفيما كان الماء يمرُّ من حنجرته رأى نفسه داخل رأسه كأنَّه شفاف، رأى سقوط الماء في معدة نظيفة، وانتفاضة جدارها، ثم رأى معدات رجال كانوا يضحكون، شفافين أيضًا، وتحقق أنَّها تبدو أكياس قمامة، شعر بالعلو، بقدرته أخيرًا على إنجاز عملٍ مهم، وخرج إلى الممر، وهو يفكر في لوث أكاسو. أطلَّ على غرفة معتقدًا أنَّها الحمّام، لكنها كانت غرفة نوم، وعلى سريرها يجلس مَن فتح له الباب.

ـ أنت ميتٌ أيضًا؛ لأنَّك الوحيد الذي يراني، قال له، فصفق ألبارو الباب بسرعة، مرعوبًا، وخرج إلى الممر مرة أخرى... كان الشيطان.

لقد بحث هذه المرة مباشرةً عن باب الشارع، وغادر الحفلة.

برد الشارع، حين ضرب وجهه، أثار فيه شعور الخدر. سار لبرهةٍ حتى تخف إثارته وسرعته، وفيما كان يتمشى تكرر في ذهنه لقاء لوث أكاسو، سيتحتم عليه فحسب كتابة ما تمليه عليه هذه المرأة؛ ليفعل شيئًا يسترد به نفسه من الحبسة اللاحقة لنجاح «الحديقة». أفضل شيءٍ أنَّ المادة خارج رأسه، ليس عليه إلا تلقيها وترتيبها، ليس عليه كذلك البحث عن وسائل مصطنعة للهروب من سيرته الذاتية، كما فعل في «الحديقة»، لقد بدت لوث أكاسو هدية من القدر في النهاية.

حين بدأ يتعرق من تحت ملابسه، أوقف تاكسي وعاد إلى البيت، كان يعيش في شارع كوراثون ماريا، بالقرب من ورش أدبية، على سطح له شرفةٌ كبيرة يشاهد من خلالها بسهولة شارع M30 والسيارات المارقة فيه. تلك الحيوات الصغيرة تستمد معناها من حكي أحدٍ لها، التاريخ هو حكاية المعنى، قال لنفسه فيما ينتقل من جانبٍ إلى جانب بالشرفة، حتى أجبره البرد على العودة إلى الداخل، حيث سحب كراسة ملحوظات ودوَّن أهم ما في لقائه الأول بـ لوث أكاسو. لم تمنع نوبة الإبداع، مع ذلك، زيارة الخوف له في تلك الليلة مثل أغلب الليالي، ليس خوفًا ناضجًا، إن كان ثمَّة خوف ناضج، وإنما قلق طفولي. لقد بدأ يتوتَّر مع سماع صرير قطعة أثاث، أو صوت خطوات تبدو نابعة من غرفة النوم، لكن في الحال تسللت

الخطوات إلى رأسه، وحتى لو تمتع بالشجاعة الكافية؛ ليتأكد من أنَّ غرفة النوم خالية، ما كانت لتخرج من دماغه حتى شقشقة الصبح. ثمَّة أشخاصٌ يحددون مخاوفهم المجردة في رعب من اللصوص أو المجرمين، غير أنَّ ألبارو أبريل ليس كذلك. ما كان يخشى لقاءه لو أطلَّ على غرفة النوم هو شبحه ذاته، كان يؤمن بالأشباح في الليل، ويكفر بهم في الصباح، وحالته لم تتحسن منذ غادر بيت أبويه منذ أكثر من أربع سنوات ليعيش بمفرده. في البداية ظنَّ أنَّها مسألة وقت، لكنه الآن بدأ يشك في ذلك.

كان له روتين في الهلع يكمن في إشعال كلِّ أضواء الصالة، ثم إضاءة بقية البيت بمفتاح واحد. وبقية البيت يتكون من مطبخ صغير، وحمّام ضيق، وغرفة نوم بجزءٍ من سقف العلية، وتتلاحم جميعها حول قطعة توزيع صغيرةً يُسمِّيها بتهكم ممرًّا. بكلِّ أضواء البيت مفتوحة، كان الخوف يهون، لكنه لا يختفي، ويوم اعترف لي بخوفه من الأشباح، وسألته أي نوع من الأرواح يخاف أن يصادفه، تردد قليلًا، وحَسَبَ إن كنت جديرًا بهذا النوع من الثقة، وفي النهاية قرر أن لا، رغم أنَّه حكى لي من دون خجلٍ ما يلي:

بعد أن يُضيء الأنوار، إن لم ينم في التو، يسحب جريدة ويقرأ صفحة الاتصالات، ويتخيل أنَّه يشتري صحبة تنزع عنه الخوف، وبلغ به الأمر أحيانًا أن سجّل رقم تلفون لكنه كان يغلق قبل أن يرد أحد؛ لأنَّه يخاف من الرد أكثر من خوفه من الشبح. هذه المرة وقعت إصبعه بالمُصادفة على رسالة تقول: «أرملة ناضجة، بيت، وفندق».

هذه التركيبة أسرته بل وأثارته، كان بوسعه فحسب أن يهاتف شخصًا يعدّه أكثر وحدة منه، ضرب الرقم إذن، وكان رقم موبايل، واحتمل الجرس مرة، واثنتين، وثلاثة؛ وفي الرنة الرابعة كان على وشك أن يغلق الخط حين أجابته امرأة.

- آلو.

- أهلًا، قال منتظرًا أن تبادر المرأة؛ لأنَّه لم يكن يعرف كيف يتصرف.

- أهلًا يا حبيبي، أضافت هي، ما اسمك؟

- ألبارو، رد بارتباكٍ ما؛ إذ لم يكن يتوقع هذا الهدوء من أرملة ناضجة.

- وأين أنت يا ألبارو؟

- أنا في بيتي.

- بمفردك؟

- نعم.

- مثل أرمل؟

- مثل يتيم، خرجت منه دون أن يفكر فيها.

- إذن ثمَّة ما يجمع الأرملة واليتيم، هل تريد أن تزورك أمك؟

- نعم.

- وهل تعرف ما سعري؟

- لا.

ـ ماذا تفضّل يا صغيري، أن أقول الآن أم لاحقًا؟

ـ لاحقًا.

ـ طيب، سأقوله لاحقًا يا حبيبي.

شعر أنَّ المرأة تتحرك داخل البيت فيما تتحدث معه؛ إذ كانت تحدث ضوضاء منزلية مثل ضوضاء السيفون، واحتكاك فنجانٍ بكأسٍ، وفَتْح حنفية، وتغريد عصفور، أو ربما طائر الحسون رافعًا صوته أحيانًا. هذا الجو المنزلي زاد من إثارة ألبارو، فاندفع وأعطاها عنوان بيته.

ـ أنا قريبة منك، أضافت، في أقل من نصف ساعة أطرق بابك.

أنهى ألبارو المكالمة، تعرّق، وشعر فجأة بفراغ سمعي غريب من حوله. صخب السيارات المنزلقة بطريق M30 يصلُ إليه الآن منطفئًا، كأنَّه يأتي من بُعدٍ دخيل على بُعده، ويمرُّ بعملية فلترة عبر جدران. دندن بأي أغنية ليتأكد إن كان سيُسمع صوته، وبدا له أنَّه ينبعث من مكانٍ موازٍ كذلك، حينئذٍ نهض وتجول في الشقة بحثًا عن الشبح؛ إذ كان يحتاج إلى شيءٍ مألوف ليطمئن، غير أنَّ الشبح، أو إمكانية وجوده، قد اختفى. كلُّ شيءٍ كان مظلمًا في نهاية المطاف، لكن في هذه الظلمة ثمَّة شيء أشد رعبًا من الشفافية الشبحية السابقة؛ ذلك لأنَّه قد عبر حدود شيءٍ ما، قال لنفسه: لقد خطوت خطوة للأمام، والآن أجد نفسي في مكانٍ مختلف عن المكانِ الذي كنت فيه قبل الاتصال بهذه الأرملة الناضجة. وفي الحال فكّر في إلغاء الموعد، لكنه حين أمسك بسماعة التلفون في يده، تخيل المرأة تهبط من

سُلم بيتها، وتخيلها في الشارع، وتخيلها في التاكسي. وفجأة، لم تعد سيدة محتاجة، وإنَّما امرأة عنيفة ستأتي إلى بيته بكلِّ الطرق لتثير فضيحة.

تراجع عن الاتصال، وخرج إلى الشرفة الرحبة؛ ليرى إن كان البرد سيردّه إلى الأحاسيس الجسدية العادية، إذ حتى حركاته بدت موجهة من مسافة بعيدة: من خلاله، نعم، رغم أنَّها من مكانٍ ناءٍ؛ إذ يجد نفسه، ولا يجد نفسه هناك في الوقت نفسه. حينئذٍ رأى البرد، لكنه لم يكن قادرًا على الشعور به، ورأى كيف يتكثف الضباب حول إضاءة عمدان الشارع، دون أن يلحظ الرطوبة كذلك، الرطوبة الوحيدة كانت نابعة من عَرَقه ذاته. كان في الحياة، لكنه منعزلٌ عنها بنوعٍ من حاجز كريستالي، وافترض أنَّه في هذا المكان، أو حالته هذه ما مِن وجود حتى لقوة الجاذبية، إذ عندما جال في الشرفة من طرفٍ إلى طرف تحتم عليه بذل جهدٍ كبير؛ ليثبت قدميه على الأرض. لقد عاش أحيانًا في هذه الشرفة نفسها شبحًا منتحرًا. تطلع الآن، وحَسَبَ أنَّه لو ألقى بجسده في الفراغ بدلًا من السقوط، قد يطفو فوق البيوت... فوق الشوارع... فوق طريق M30. أغمض عينين وأبصر المدينة برؤية طائر، لكنه في الوقت ذاته خطرت له فكرة: ماذا لو كانت المرأة التي هاتفها هي نفسها الشبح الذي يخافه جدًّا؟ كان يعرف بقراءاته الأدبية أننا مدانون بمصادفة ذاك الذي نهرب منه، فبدأ يرتاب في أنَّ الأشباح كائنات واقعية. بدا له مدهشًا أنَّه لم يكن قد انتبه حتى هذه اللحظة إلى أننا لا نفعل شيئًا إلا التقاطع مع

الأشباح كلَّ يوم، عرف أنَّ المرء حين ينتظر تغيير لون إشارة المرور يكون محاطًا بأشباح، وأنَّ الباص والمترو مليئان بالأشباح، وأننا في المطاعم نأكل في مراتٍ كثيرة بجانب أشباح، رغم أنَّه لم يكن قادرًا على إدراك هذه الحقيقة الكَفَية ـ هكذا أطلق عليها «حقيقة كَفَية» (من أين جاء بهذه الصفة؟) ـ حتى تلك اللحظة.

في تلك اللحظة، وقف تاكسي أمام مدخل البيت، ورأى نزول سيدة ترتدي الأسود، لا بدَّ أنَّها الشبح الذي هاتفه بالتلفون قبل دقائق مضت: كانت أمه الميتة؛ لأنَّ ألبارو كان له أُمَّان كما سنرى فيما بعد.

وصلت الأم الميتة إلى الشقة في ثوانٍ، كانت أرملة ناضجة بالفعل، في الثانية، أو الثالثة والأربعين، فخلعت معطفها الأسود في الصالة، وعلَّقته بحرصٍ على ظهر كرسي.

ـ بيتك أنيق، قالت وهي تلقي نظرة حولها.

ـ شكرًا.

كانت الأرملة الناضجة ترتدي تحت المعطف الأسود بلوفر أسود، وجونلة سوداء، وجوربين سوداوين، وكان مجمل لبسها مستهلكًا قليلًا، مثل زي موظفٍ مبتدئ.

ـ طيب، أي نِمرة تحب أن نؤدي؟

ـ أحب أن تستحمي.

ـ هل تريد أن نستحم معًا؟

ـ لا، أريد أن تستحمي وحدكِ، وأنا أنظر إليكِ.

- ألا تكون سايكوباتيًا يا صبي؟
- بلى، قال وقد احمرَّ وجهه.
- إذن لماذا تريد أن أستحم وحدي فيما تنظر إليّ؟
- لأنّي حين كنت صغيرًا، كنت أختبئ في الحمّام في سلة من الخوص مخصصة للملابس الوسخة، وأشاهد أمي تستحم.
- تشاهدها تستحم فيما تتشمم لباسها الوسخ؟
- أحيانًا، نعم.
- يا لك من طفلٍ يتيمٍ بائس، قالت الأرملة الناضجة وهي تشد ألبارو ناحيتها.
- هيا إلى الحمّام.
- اتفقنا يا حبيبي، لكن قبلها ضع الفلوس على هذه المنضدة، وضع فوقها هذه الفازة، لن أمدَّ لها يدي حتى ننتهي، لكني أحب أن أراها.

لم يجادل ألبارو في السعر، يحتفظ دائمًا بفلوس في خزانة ملابس غرفة النوم، وأحيانًا يعدّها. لم يكن شحًّا ولا شيئًا من هذا القبيل، لكن يروق له لمس الأوراق المالية، وعدّها لأسباب هو نفسه لم يستطع معرفتها. سحب إذن الفلوس من خزانة الملابس ووضعها على المنضدة وفوقها وضَع الفازة.

- اسمي ماريسول، بالمناسبة.
- مثل أمي، أشار مدهوشًا.
- يسرني ذلك.

اتجها إلى الحمّام وبدأت الأرملة الناضجة في التعرّي بحركات مثيرة ضايقت ألبارو.

ـ لا تتعري هكذا، تعاملي كأني لست موجودًا، كأنَّكِ وحدكِ.

ـ يا له من نزِق هذا الصبي! اعترضت هي بطريقةٍ بلاغية.

كانت الملابس الداخلية للأرملة الناضجة، للمفاجأة، حمراء، ما ضايق ألبارو، رغم أنَّه لم يقل شيئًا هذه المرة.

ـ الآن ادخلي إلى الدش، واتركي الستارة مفتوحة.

ـ هل للبانيو ستارة؟

ـ نعم.

فتحت المرأة الحنفية قبل أن تدخل إلى البانيو لتقيس بيدها درجة حرارة الماء، ودون أن تنتبه أدت أول إيماءة لا بلاغية، ما أرضى ألبارو كليةً. بعدها، كأنَّها بهذه الإيماءة استعادت الرغبة في التفاصيل اليومية، بدأت تأخذ دشًّا كأنها وحدها، وهي تدندن حتى بأغنية، ومن حين لآخر كانت تنظر في الزاوية المختبئ فيها ألبارو، لكن بدا أنَّها لا تراه.

ـ بللي شعركِ.

ـ هل لديك سشوار يا حبيبي؟

ـ نعم، لا تقلقي.

فيما كان يراقبها، أُثير ألبارو بفانتازيا أنَّ الأرملة الناضجة هي الشبح الحقيقي لأمه الميتة، لكنَّ الإثارة توارت عندما أغلقت المرأة الدش، وأخذت ملابسها الداخلية الحمراء. شبح أمه لم يرتدِ قط أي

ملابس شبيهة، حينها عاد الواقع بالطريقة المعتادة نفسها، لم يكن الصخب ينبع من أي بُعدٍ موازٍ، وبدأ صوت ألبارو يخرج من داخل جسده ذاته، كما هي العادة. وسهّل ذلك الأشياء بطريقةٍ ما؛ إذ أدرك أنَّ التفاهم مع عاهرة أسهل من التفاهم مع شبح.

ـ جففي رأسكِ إن أردتِ، سأكون في الصالة.

وفيما كان يسمع صرير المجفف، ويتأمل تأني المرأة وهي تضع معطفها الأسود ـ زيها الرسمي ـ على ظهر الكرسي، ندم لأنَّه اتصل بها، وعرف أنَّه ما من كفّارة قادرة على محو هذه الخطيئة، هكذا قد يقول لي، بهذه المصطلحات المسيحية اللافتة في كاتبٍ شابٍّ غير مؤمن.

لقد أدركت الأرملة الناضجة أنَّ عملها قد انتهى، لكنها جلست بجواره بملابس داخلية، وأشعلت سيجارة كأنَّها تخشى ألا تحصّل أجرها.

ـ أنتِ لستِ أرملة، أليس كذلك؟

ـ كأنَّي أرملة.

ـ لا تقلقي، فأنا لست يتيمًا كذلك.

ـ وهذه سلوى، ماذا تعمل؟

ـ أنا كاتب، قال ألبارو وبكى بشكلٍ غير مفهوم كما فعلت لوث أكاسو، حين حكت له أنَّها أرملة.

ـ أعرف كاتبًا آخر ينفجر في البكاء أيضًا دون سبب، أنتم هشّون جدًّا.

ـ ليس أننا هشّون، أجابها وهو يقمع دموعه، المشكلة أنَّ الحياة مدينة لنا بشيءٍ، ولا تسدد دَينها.

ـ سأحدثك أنا يا حبيبي عن المشاكل، عندي ابنة كبيرة في فرنسا لا تعرف شيئًا عن عملي.

ـ وماذا تفعل في فرنسا؟

ـ تدرس الصيدلة، لو ظلَّت في إسبانيا، كانت ستعرف عاجلًا أم آجلًا ماذا تعمل أمها، منذ صغرها أدخلتها مدارس داخلية، وأنفقت عليها ثروة. هكذا لا تبكِ؛ لأنَّ الحياة مدينة لك بلا أعرف ماذا.

ـ وما تظنُّ ابنتكِ عن عملكِ؟

ـ تظنُّ أنِّي أبيع مجوهرات، كما ترى أنت، لو كنت كاتبة، كنت سأكتب أشياء واقعية، مثل قصة أنَّ لي ابنة في فرنسا مقتنعة بأنَّ أمها تبيع مجوهرات، لقد اضطررت أن أتعلم الفروقات بين الماس والياقوت، هل تعرف الفرق بينهما؟

ـ لا، قال ألبارو.

حينئذٍ أعطته الأرملة الناضجة درسًا حقيقيًّا عن المعادن الكريستالية والأحجار الكريمة فيما كانت تطلق زجزاج الدخان صوب السقف، وفي لحظة ما، لتشير إلى الياقوت، استخدمت كلمة جمرة، أو جُمَيرة، استمتعت بنطقها كأنَّها تمضغ كراميل

ـ تُقال بالطريقتين، أضافت، جمرة وجميرة، لكن يروق لي أكثر كلمة جمرة.

ـ تبدو كاسم مرض.

ـ لكنها ليست مرضًا، كما ترى. لا تمرر عليَّ الليلة.

أطفأت الأرملة الناضجة السيجارة وأخذت الفلوس، ثم طلبت بنفسها تاكسي بالتلفون، وفيما كانت ترتدي الجونلة السوداء، والبلوفر الأسود واصلت الدروس الأساسية في المجوهرات. سيحكي لي ألبارو لاحقًا أنَّه حسد نزاهة تلك المرأة في اعترافها كيف خدعت ابنتها، لم يكن هو ليعترف بهذه الطريقة؛ ليصنع الصدق الفني في رواية، بالتالي سأل نفسه أيُّهما أكثر عُهرًا، هو أم الأرملة الناضجة.

حين بقي بمفرده، عاوده الخوف من الشبح؛ لذلك قرر أن ينام على الأريكة، وأصيب بشيءٍ من البرد.

في اليوم التالي، وصلت لوث أكاسو إلى ورش أدبية في الثانية عشرة إلا عشر دقائق، وظلت داخل السيارة تستمع للراديو لتزجية الوقت حتى الثانية عشرة، كان البرنامج الإذاعي يتناول التبنّي، وقد دعوني لأحكي أي حالة. تحدثتُ عن أمهاتٍ تنازلنَ عن أبنائهنَّ للتبني بمجرد ولادتهم، وأنهنَّ بعد سنواتٍ طويلة قررنَ البحث عنهم لرؤية وجوههم. حكيت كذلك قصص رجالٍ ونساء عرفوا بالمُصادفة أنَّهم متبَنون، والآن راحوا ليبحثوا عن أمهم الحقيقية، ليتعرّفوا إلى وجهها. ألححتُ على هذه الحاجة اللافتة إلى التعرف إلى وجه الأم أو الابن المفقودَين، كأنَّ الوجه يحوي رسالة جوهرية مكتوبة ومحمولة.

مرَّت دقائق خلالها لم يحدث شيءٌ داخل رأس لوث أكاسو، وحين عادت إلى نفسها، انتبهت إلى أنَّها شوّهت زجاج السيارة بأنفاسها، إذ استحالت لهاثًا. حينئذٍ نظرتْ في الساعة ونزلت من السيارة، سحبت معطفها من الكرسي الخلفي، واتجهت إلى باب ورش أدبية.

خرج ألبارو أبريل في التو لاستقبالها ومرافقتها إلى مكتب اليوم السابق نفسه، جلست لوث أكاسو في المكان ذاته، دون أن تخلع المعطف كذلك، وهو فتح الماغنتوفون[1].

---

(1) جهاز تسجيل وتشغيل الصوت على أشرطة ممغنطة (م)

- في البداية سيبدو لكِ مُلحًّا التعلق بالجهاز، لكن في الحال ستنسينَ وجوده.
- الحقيقة أنَّه يعيق بعض الشيء قالت وهي تعيد شعرها إلى الوراء.
- معكِ حق، إنَّه يوحي بضرورة قول الأشياء مرتبة قليلًا أكثر من العادي، لكن تجاهليه. عبّري عن نفسكِ كما تريدين، وتحدثي عمّا يروق لكِ، وأنا أتكفل باختيار مادة الكتابة وبنيتها.

تنحنحت لوث أكاسو.

- سنرى ما سيأتي، قالت.
- إن أردتِ، وحتى تذيب الجليد، يمكننا أن نبدأ بما قيل بالأمس، حكيتِ لي حضرتكِ أنكِ أرملة.

فتحت لوث أكاسو أزرار المعطف لتكشف عن جونلة سوداء، جلدية، لم يستطع ألبارو تجنب النظر إليها.

- معذرة، ألا تريدينَ خلع المعطف؟
- ليس كاملًا، الجو بردٌ هنا.
- هذه الشقق القديمة خسائرها كثيرة.

ظلَّت المرأة تنظر إلى الفراغ في اتجاه ألبارو وهو يلّح:

- وأنتِ بخير؟

ـ يجب أن أعترف لك بمسألة مسبقًا، أنا لست أرملة، لقد كذبت عليك بالأمس، لقد خطرت لي فجأة فكرة أن أكون أرملة، ولم أستطع قمعها.

توقفت لحظة تسمّر فيها ألبارو أبريل، مثل قطعة أثاث، كاتمًا أنفاسه، ومثبتًا عينيه على وجه المرأة.

ـ لست أرملة، لم يكن ذلك إلا أكذوبة، لكنَّ دموعي كانت حقيقية، كنت أبكي حقيقةً لفقدٍ مزيف، والحق أنَّ هذا الخيال واتاني مراتٍ كثيرة، خيال أن أغدو أرملة، رغم أنِّي لم أرغب قط في الزواج، يبدو تناقضًا، لكنه ليس كذلك في داخلي.

سقطت المرأة مرة أخرى في الصمت، وبدا للحظةٍ أنَّ الكون بأسره التزم الصمت لينصت لاعترافها، وأكّد احتكاك شريط الماغنتوفون هذا الصمت المزعج، فكسره ألبارو أبريل في النهاية.

ـ الخيالات أيضًا جزء من الواقع، لا تقلقي.

هل يمكن أن تضمَّ سيرتي كلَّ ذلك؟ سألت المرأة وهي تحاول قمع دموعها، هل يمكن أن تضمَّ، رغم أنِّي لست أرملة، مزاجي كمزاج امرأة فقدت زوجها؟ هل يمكن أن هل يمكن أن نصنع سيرة ذاتية حقيقية بمعلومة كاذبة؟

ـ نعم، يمكن فعل ذلك.

ـ حتى لو لم تكن حقيقية!

أضافت وهي تمسح دمعة وحيدة من عينٍ يُمنى بظهر سبابتها.

- لن تكون حقيقية بالنسبة لسيرة ذاتية مقدّمة لعمل، لكنها حقيقية لكتاب سيرة ذاتية.
- إذن أحكيها، أحكي أنّي شعرت بفقد زوجي مثل، مثل...
- مثل بتر؟
- مثل عضوٍ صناعي أفضل، عضو صناعي لشيءٍ قد فُقِد عند الزواج. في حياته، كنت لا أعرف فعل شيءٍ عمليًّا، ولا حتى توقيع شيك، ولا تصليح حنفية، لا شيء، لم أكن أعرف ما ندفعه كلَّ شهرٍ من فاتورة الغاز والكهرباء والماء، كان هو مسؤولًا عن كلِّ شيء. في البداية ظننت أنّي لن أستطيع بمفردي السير خطوة للأمام، لكني عثرت لاحقًا على متعة التعلم، ومع كلِّ تجربة أنهيها كنتُ أستفيد أيضًا، وألاحظ إلى أي مدًى كنتُ خاضعة لرغباته، أعتقد أنّي وصلت إلى كرهه بعض الشيء. ذات يوم فككت مقبسًا في البيت لم يكن يعمل، بالنسبة لي، كان قلب المقبس غامضًا مثل مكنون الرأس، لكني رأيت أنّه لا يضمُّ إلا سلكين أحدهما كان منفلتًا، ربطته في صمولة بدا أنّه مفكوكٌ منها، وركّبته من جديد، وعمل بكفاءة. حينها، بعيدًا عن سعادتي، شعرتُ بحزنٍ غامر وانفجرت في البكاء، فكّرت أنّي سأدفع أي شيءٍ مقابل أن يراني أُصلِح هذا المقبس، هل تفهمني؟
- بالتأكيد، قال ألبارو أبريل، وهو يدوّن ملحوظاتٍ في كشكول كبير.

حينها خلعت لوث أكاسو معطفها، ووضعته على الكرسي خلف ظهرها، كانت ترتدي بلوفر أسود رقيقًا جدًّا، له رقبة مستديرة، تبرز منه عظام كتفيها وفرائصها، إذ كانت شديدة النحافة. وكان مثيرًا للرعشة أو للشفقة رؤية رقبة هشة جدًّا وعارية تمامًا.

ـ ما اسم زوجكِ؟

ـ قلتُ لك إنَّه لا وجود له، وبالتالي لا حاجة إلى تسميته بأي اسم، لم أتمكن من العثور على اسم يتفق مع مزاجه.

ـ هل ترغبينَ في التحدث عن شيءٍ آخر؟ شيءٍ عن طفولتكِ ربما؟ أتريدين وصف أبويكِ؟

ـ لا، لا، أفضّل مواصلة الكلام عن زوجي. سترى، يوم دفنه حدث شيءٌ غامض؛ لأنَّه مات بالبيت، وضعنا النعش في الصالة، كنت سأفضّل أن نضعه في غرفة نومنا حتى لا أضطر لتحريك الجثة، غير أنَّ أمي قالت إنَّ هذه الطقوس الجنائزية حين تقام في البيت يجب وضع النعش في أوسع غرفة، وأقلّها حميمية. هكذا بمساعدة الجيران والحانوتية وسّعنا أثاث الصالة، ووضعنا نعشًا مزينًا لا يختلف في شيءٍ عن النعش الموجود في محلات الحانوتية الحقيقية، لقد كنتُ دومًا من أنصار الموت في البيت، وقد مُتُّ، في خيالي، بالتأكيد، ثلاث أو أربع مرات، ولا واحدة منها في المستشفى، أتمنى أن أحكي لك ذات مرة عن ميتاتي نفسها.

ـ اتفقنا، قال البارو.

ـ تكفلت أمي بوضع منضدة في مدخل الشقة، تحمل كتاب توقيعات وصينية فضية، حتى يوقّع توقيعه كلُّ مَن يأتي للعزاء، ويترك بطاقة الزيارة. كانت أمي أرملة وتعرف بالخبرة تلك الطقوس المترعة بالسلوى، كما أظنُّ، في تلك المواقف المؤلمة. وحين انتهينا من إقامة كلِّ شيءٍ، في العاشرة مساءً تقريبًا، بدأ الناس بالمجيء. في البداية كانوا من المعارف، لكن لاحقًا ومع مرور الساعات، امتلأ البيت بظلالٍ تتحدث فيما بينها بفنجان قهوة بين أياديها. فقدت السيطرة على الزوار، كان يحيّيني أشخاصٌ لم أرَهم من قبل في حياتي، وأشكرهم بشكلٍ تلقائي، وأنا أفترض أنَّهم زملاء أو زميلات عملٍ لزوجي، أو أنَّهم أقارب بعيدون، هؤلاء مَن لا يظهرون إلا في كلِّ دفن في النهاية، وعند الفجر، أعطتني أمي كبسولة كي أحتمل.

ـ كبسولة ماذا؟

ـ لا أعرف؛ لأنَّها لم تكن كبسولة حقيقية، لم أحتج إلى أن أسمّيها، كانت كبسولة من أجل التحمُّل، أؤكد لك أنَّ ثمَّة كبسولاتٍ من أجل ذلك فحسب.

ـ معذرة، أكملي.

ـ طيب، وفي الصباح جاء الحانوتية، وأنزلوا النعش ورحنا إلى المقابر ودفنّا الميت، حتى هنا كلُّ شيءٍ عادي، وعند العودة إلى البيت، كنت مستسلمة، ونمت يومين متواصلين،

كما قالت أمي، صحوت ضعيفة جدًّا من السرير، وأعددت حساءً لأستعيد عافيتي. كنتُ قد فقدت شهية الطعام، جلست على أريكة أضعها أمام الشرفة، وبدأت أتأمل بيوت الجانب الآخر من الشارع كامرأةٍ في فترة النقاهة. أعيش في شارعٍ ضيق، يشبه شوارع براغ. الآن أنتبه إلى أنَّ موت زوجي كانَ بطريقةٍ ما مثل نهاية مرضٍ طويل، والمرض كان الزواج نفسه؛ لذلك كنتُ في فترة نقاهة، أتعافى منه، وجاءني شعور بأنَّها ستكون نقاهة طويلة، طويلة، كنت أزجي وقتي بالفرجة على ألبومات الصور القديمة حين كنّا شبابًا؛ لأننا تعارفنا لما كنّا صغيرين، لقد حملت منه وأنا في الخامسة عشرة، وكانت فضيحة في عائلتينا، إذ قررتا أننا لن نستطيع التكفل بطفل، فأودعناه دارًا للأيتام عبر نظام بموجبه حينها لا أحد يعرف مَن مودعُ الطفل. وأنت لا تطلع على شيء، ولا تعرف حتى نوع ابنك؛ لأنَّهم لا يسمحون لك برؤية وجهه حتى لا تحمل له أي عاطفة، لا أعرف إن كان ولدًا أم بنتًا، معذرة، لكن لا يمكنني تذكر ذلك من دون أن أتأثر. في أحيانٍ كثيرة تساءلت كيف سيكون وجهه اليوم، وأحيانًا أتجول بالشارع، وأنظر في وجوه الناس، وأقول لنفسي هذا أو هذه قد يكون هو أو هي، هذا لا وهذه لا، هذا هو البتر. بعد ذلك، حين تزوجنا، لم أرغب في الإنجاب؛ لأنَّه بدا لي خيانة لطفلٍ أو طفلة لن يعرف أبدًا أنَّه طفل منتزَع منه أمه الحقيقية.

وضعت لوث أكاسو المعطف على كتفيها، كأنَّ الذكريات جلبت لها البرد، ومرر ألبارو أبريل لسانًا على شفتين محمرَّتين، وحدّق في لوث أكاسو في حالة بين الافتتان والخوف، كان قد توقف عن تدوين الملحوظات؛ ليقوم الماغنتوفون بالمهمة كاملة، وقد بلغ الشريط آخره في تلك اللحظة محدثًا صخبًا جافًا أفزع كليهما. أسرع ألبارو لقلبه على الوجه الآخر فيما استمرت لوث أكاسو في الحكي.

- قد يكون ابني في سنك الآن، قالت فجأة.
- لن تصدّقي، لكني بالمُصادفة ابن متبنًى، لم أعرف قط أبوَي الحقيقيين.
- الحياة ملأى بالمُصادفات، لو عرف الواحد منا رؤيتها. لفت انتباهي أنَّ هذه الحارة اسمها فرانثيسكو إكسبوسيتو[1].
- هذا أول ما شاهدته عندما بدأت العمل في ورش أدبية، اسم الشارع.
- لكن حضرتك لست إكسبوسيتو.
- أنا أبريل، جاءني الاسم من أبوَي بالتبنّي.
- طيب، وقفنا عند جلوسي أمام الشرفة كامرأة تتشافى، وكانت أمي تأتي أحيانًا، وتعد لي طعامًا صحيًا أبلعه بالكاد، قلت لك إنّي كنت أتفرج على ألبومات صور قديمة وكلّ ذلك. لكني ذات يوم أخذت كتاب توقيعات عزاء زوجي، وبدأت

(1) كلمة "إكسبوستو" تعني بتيمًا، أو مهجورًا (م).

أقلّب صفحاته، كان في الواقع كتاب حسابات ضخم، يشبه كتاب توقيعات كانت أمي قد عثرت عليه في المكتبة. بعض الأشخاص سجّلوا في خانة المديون، وبعضهم في خانة الدائن، عباراتٍ قصيرة وتقليدية، لكني فجأة اصطدمت بعبارة لفتت انتباهي؛ لأنَّها كانت تقول: «الأرملة الحقيقية كانت هنا دون أن يتعرف إليها أحد، هذه هي الحياة». ثمَّة امرأة أخرى كانت هنا، في النهاية، ولم تكن امرأة دخل معها زوجي في مغامرة عابرة، إذ عرّفت نفسها كـ «أرملة حقيقية». فكرتُ كم وجودٍ موازٍ يمكن أن يحتويه الوجود الواحد دون أن يلحظه الأشخاص القريبون. لم أعترف لأحد، حتى الآن، عن مسألة ابني، على سبيل المثال، ومع ذلك راح غياب هذا الابن يتنامى بجانبي دون أن ينتبه أحد، أي أحدٍ من المقربين، إلى الفراغ الصاخب. لقد فهمت تمامًا تلك المرأة إذ تقول إنَّها أرملة حقيقية، من بين أشياء أخرى؛ لأنَّي أنا، بالإضافة لزوجي، كنت فقدت مرضًا، أنا لم أكن أرملة، وإنَّما متعافية. لقد أحصيتُ بالذاكرة النساء اللواتي جئنَ لتعزيتي في ليلة مرافقة الميت، لكني لم أستطع استنتاج أي منهنَّ قد تكون الأرملة الحقيقية، وكنت أتمنى أن أتحدث معها لأتنازل لها عن لقب الأرملة الرسمية في مقابل أن تحكي لي أشياء أجهلها عن زوجي، تظن أنَّك تعرف الأشخاص، ثم كما ترى. لكن مرَّ كثيرون ببيتي في تلك الليلة وكنت متوترة،

لدرجة أنّه يستحيل أن أتذكر أي وجهٍ من وجوه المعزين. الأرملة الحقيقية كانت تُسمّى فينا، هكذا وقّعت في الكتاب على الأقل، وهو اسم رغم أنّه ليس أصيلًا إلا أنّه نادر بعض الشيء، بل وكوميدي بعض الشيء.

- وماذا قلتِ عن اسم زوجكِ؟ سأل ألبارو أبريل مجددًا بإيماءة مَن نسي معلومة تافهة، محاولًا وضع الحقيقة في جانب من السيرة، والكذب في جانب آخر.

- قلت لك إنه بلا اسم، لم يخطر لي أي اسم يناسبه.

- معذرة، معكِ حق.

- بحثت حينئذٍ بين بطاقات الزيارة، وكنت أحتفظ بها في مظروف، وعثرت على واحدة مكتوبٍ فيها: «فينا، لمرافقة الرجال الجادين، 24 ساعة»، وتحتها رقم موبايل اتصلت به في الحال، رغم أنّي أغلقت الخط عندما ردّت امرأة.

- ثم؟ سأل ألبارو أبريل.

- أنا مرهقة قليلًا، إن لم يضايقك، نتوقف حتى هنا اليوم.

نظر ألبارو أبريل في الساعة، وقال:

- كما تحبين، على أي حال، كنا أوشكنا على الانتهاء.

بحسب ما ستحكيه لي ماريا خوسيه لاحقًا، غادرت لوث أكاسو «ورش أدبية» وهي معكرة، لكنها سعيدة، رغم أنَّه من المستحيل الإشارة إلى أين ينتهي التعكير، وتبدأ السعادة، إذ تدخل الواحدة في أرض الأخرى كما تتداخل أصابع اليدين عند تقاطعهما. كان يبدو أنَّ السيارة تسير بمفردها، والسرعة لم تصل قط إلى هذا الحد بسهولة، ولا إشارات المرور كانت غيّرت ألوانها بهذا الشكل المناسب، حتى شارع لوبِث دي أويوس، وكان شارعًا فوضويًّا يتعامل بميكانيزم دقيق يحدث فيه كلُّ شيءٍ لخدمة شيءٍ آخر. فرملتْ ورأت امرأة تعبر بأكياس من أمامها، كانت بلا شك تتوجه إلى مكانٍ غامض، ربما إلى مطبخ، اكتشفت فجأة أنَّ المطابخ أماكن غريبة، قادرة على إثارة أحداثٍ في أدمغة مَن يدخلها، فكّرت في مطبخ بيتها، وراقَ لها أنَّها وصلت. في اليوم السابق، حين ودّعتها ماريا خوسيه، العوراء، بعد أن نامت القيلولة على أريكتها، كررت مجددًا موضوع براغ:

ـ يا للحظ! العيش في براغ دون الحاجة إلى الخروج من مدريد، أعتقد أنَّه في بيتٍ مثل هذا سأكون قادرة على كتابة عملٍ عظيم حول ألم القطنية، أو L› um bago.

لا بدَ أنَّ لوث شعرت بالفخر، لقد اكتسبت حياتها قيمة لا يمكن شرحها، غدا لها بيت في براغ وكتاب سيرة في طور التطوير. التوقيت صار أوروبا الوسطى، رغم أنَّ درجات الحرارة ارتفعت قليلًا في الساعات الأخيرة.

ضبطت المرآة العاكسة بطريقةٍ لا تكشف المرور، وإنَّما ترى فيها نفسها. بهذه الطريقة، كلَّما نظرت رأت عينيها، وتخيلت أنَّهما عينا راكبةٍ تسافر في ظهرها، تطاردها، رغم أنَّها كانت تشعر أنَّها تبتعد عن نفسها مع مرور الوقت، كانت في طريقها لهجر حياة وراءها لتعانق حياة أخرى.

في أثناء ذلك، صرخ فيها سائق السيارة المجاورة على يمينها بطريقةٍ فاحشة، وخرجت هي من شجنها، وهي تفكر أنَّها ربما قامت بغرزة خاطئة، لا تبالي. بالإضافة، لاحظت بلا مبالاة غريبة وجه مَن سبَّها وابتسمت، ثم، ودون أن تهجر الابتسامة، أدارت المقود، واقتربت من السيارة حتى احتكت بها، رأت الوجه المذعور لسائقٍ صارخ، تنحَّى إلى جانب وفَرمَل، وهي في المقابل أسرعت وتركته خلفها، حين نظرت في المرآة العاكسة لم يكن في محيط نظرها.

كان بالقرب من بيتها مرأب اعتادت أن تجد فيه مكانًا لتركن سيارتها، رغم أنَّها عادةً ما تمرُّ أولًا أمام مدخل البيت، فربما تجد ركنة، لم تجد أي ثغرة، لكنها وجدت ماريا خوسيه، العوراء، واقفة عند المدخل بحقيبة سفرٍ على الأرض، منتظرة بكلِّ وضوح وصولها. لفَّت مرتين حتى تراها، وفي النهاية ركنت في المرأب، وحين وصلت إلى مدخل البيت، كانت ماريا خوسيه تحمل الحقيبة في يدها، كأنَّها قد تعبت من الانتظار، وعلى وشك الرحيل.

- مرحبًا، قالت لوث.

- مرحبًا، هل يمكن أن أصعد؟

قالت ماريا خوسيه على السُّلم: إنَّ أبويها قد طرداها من البيت؛ لأنَّها رفضت العمل في محل السمك.

ـ يمكن أن تبقي معي عدة أيام، قالت لوث.

ـ كم يومًا؟ سألت العوراء.

ـ لا أعرف، عدة أيام، حتى تقرري ماذا ستفعلينَ.

ـ قلت لكِ إنِّي أريد أن أكتب شيئًا حول ألم القطنية، أو حول الـ L› um bago.

فتحت لوث باب بيتها ودخلت، ومن ورائها العوراء، وحين استقرت كلٌّ منهما في الداخل، التفتت وسألتها:

ـ وكم سيستغرق كتابة هذا الكتاب؟

ـ في مدريد، قد أظلُّ أكتبه طوال حياتي، لكن في براغ في عدة أسابيع.

أكلتا معًا، مثل اليوم السابق، في مطبخ مظلم، ثم جلستا على الأريكة، حكت لوث لـ ماريا خوسيه أنَّ ألبارو أبريل لقيط.

ـ يمكن أن يكون ابني، صدقيني، قالت ضاحكة؛ لأنَّي سلَّمت ابنًا للتبني، لا بدَّ أنَّه في نفس سِنه الآن.

ـ ومتى أنجبتِه؟

ـ كنت في الخامسة عشرة، حملت من رجل مات بعد ذلك، وما إن أنجبت، انتزعوا مني الطفل، وسلَّموه لامرأة أخرى كانت تنتظر في الغرفة المجاورة حتى يدَّعوا أنَّها هي مَن أنجبته، ولا حتى شاهدتُ وجهه، وهذا أكثر ما أفتقده فيه: أن أرى وجهه.

ـ وكيف تعرفين أنَّه طفل؟

ـ لا أعرف، ربما كان طفلة، أنتِ أيضًا قد تكونينَ ابنتي.

ـ لكني لست لقيطة.

ـ لكن يبدو لي أنَّي التقطتكِ في التو.

ضحكت لوث وماريا خوسيه، كانتا جالستين على الأريكة أمام نافذة تطلُّ على شارع ماريا مولينِر، وكان المساء، مثل اليوم الفائت معتمًا، ويبدو بداخله فقاعة من نور. ربما فقاعة النور كانت داخل رأس كلٍّ منهما أكثر من وجودها في المساء؛ الحال أنَّ العتمة تمنح ترحيبًا، وفقاعة النور تعد بمستقبل.

ـ هل تسمحينَ لي برفع العُصابة لبرهة؟ سألت ماريا خوسيه.

ـ من فضلكِ.

خلعت العوراء العُصابة، وعند فتح عينها اليمنى أنار وجهها بشكلٍ أذهل لوث.

ـ كم أنتِ جميلة!

ـ لا أريد أن أكون جميلة، أريد أن أكون نشيطة، حدثيني عن ألبارو أبريل.

ـ خجول.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ عصبي، يعضُّ شفته السفلية هكذا، قالت لوث، وهي تعضُّ شفةً لذلك فهي دائمًا حمراء.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ لا أعرف ماذا أيضًا، اليوم كان مزكومًا.

صمتتا، ثم اتخذت ماريا خوسيه وضع المرة الفائتة نفسه لتنام برهة. تقول إنَّها قبل أن تفقد الوعي سمعت ضربة ريح، وحين فتحت عينيها رأت كيف تتكتل قطرات المطر على زجاج النافذة لتشكّل جداول في الحال. رأت أيضًا أنَّ لوث فتحت حقيبة السفر، وبدأت بتفريغها، وفي النهاية عثرت على «الحديقة»، رواية ألبارو أبريل، فجلستْ بجانب ماريا خوسيه وبدأت تقرأ.

في أثناء ذلك، كنتُ أعمل في تحقيق حول التبنّي، أتمتع بهشاشة أن أنسبها سرًا إلى المصادفة، ربما يتكئ العالم على شبكة غير مرئية من المصادفات. لو تعرّى جزءٌ من هذه الشبكة أمام عينيك، كيف تتجنب غواية المرور من بين الخيوط؟ حين كنا معًا، كانت زوجتي تتهمني بأنَّ مزاجي ديني، لا يهمني أن تُسمِّيه هكذا، فأنا أعيد ربط[1] المتبعثر، أو توصيله ببعضه عبر شبكة؛ ليكتسب معنى.

كنت قد جمعت مادة كافية حول التبنّي من أجل كتاب، لكنه مركون في انتظار أن يخطر لي خيط درامي أنظم حوله كلَّ هذه الوثائق، وفيما كنت أراكم المادة، تعرفت إلى ألبارو أبريل بالمصادفة في ظروف كنت وصفتها. حينئذٍ، لم أكن أعرف أنَّه متبنًّى، هل كان كذلك؟

بعد يومين، أو ثلاثة من تعرُّفي إلى ألبارو، حدث لي شيءٌ لافت: أعزب من دون أبناء، صديق كنت أعرفه منذ المراهقة، نطق أمامي بعبارةٍ ملغزة:

ـ لو كنت أنجبت، لكان سن الابن الأكبر الآن 25 عامًا.

---

(1) في الإسبانية، كلمة دين هي Religión، ويعيد ربط هي Religar. في هذه العبارة يربط المؤلف كلمة "دين" بفعل "يعيد ربط" الأشياء. (م)

كنا تعشّينا معًا، بمفردنا، ثم خرجنا كعادتنا منذ 30 عامًا لتناول كأس، مرة أو مرتين كلَّ شهر. أنا وهو كنا خمسينيين، وبدت لي معجزة أن حافظنا على عادة نضحي من أجلها بأي التزام. وفي لحظةٍ ما، ذكرت ابني، وحينها أخبرني بأنَّه لو أنجب لكان ابنه الكبير الآن في الخامسة والعشرين.

ـ والصغير؟ سألته وأنا أكتم أنفاسي؛ إذ لم أكن متأكدًا أنِّي سمعتُ جيدًا.

ـ الصغير سيكون في الثانية والعشرين، قال وهو يقرِّب الكأس إلى شفتيه بإيماءة نوستالجيا.

لديَّ شهاداتٌ كثيرة عن نساءٍ تخلينَ عن أبنائهنَّ قبل رؤيتهم، خلال سنوات كانت ممارسة معتادة في بعض مستشفيات الراهبات، شابة لا تستطيع تحمل عبء طفلٍ كانت تلد في غرفة، وفي الغرفة المجاورة له تنتظر الأم المزيفة، لم يكن تبنيًا بالتحديد؛ إذ الأم المزيفة لأسباب قانونية كانت تسجل الابن كأنَّها مَن أنجبته، وبعد فترة، بعض هؤلاء الأطفال وقد صاروا رجالًا ونساءً، يكتشفون الخدعة بالمُصادفة، ويسقطون في هوس التعرُّف إلى أصولهم، والأمهات وقد تخلينَ عنهم دون السماح لهم بالتمتع بهم لعدة ثوانٍ يحلمنَ، من جانبهنَّ، بمقابلة أبناءٍ لم يودعوهم. كثيراتٌ منهنَّ يتجولنَ بالشوارع ويحدثنَ أنفسهنَّ: ربما يكون هذا، ربما يكون ذلك، ربما هي هذه، ربما الأخرى، دون أي أمل.

بعض الزملاء يعرفون أنّي منذ فترةٍ منغمس في هذا البحث، كانوا يسهّلون لي البيانات، أو يطلبونها من أجلي؛ لذلك، يوم جاءت لوث أكاسو قبل الثانية عشرة بعشر دقائق لمقابلة ألبارو أبريل الثانية، واستمرت داخل السيارة تستمع لبرنامج إذاعي حول التبنّي، كنت أنا على الجانب الآخر، في الإذاعة، أسرد شهاداتٍ كانت تسمعها: هنا كانت شبكة المصادفات تنسج الواقع، وبشكلٍ طبيعي، هذا ما عرفته بعد ذلك بمدة طويلة، لكني أعتقد أنّي يجب أن أقوله الآن.

مع ذلك، حين نطق صديقي بتلك العبارة (لو كنتُ أنجبت لكان ابني الأكبر في الخامسة والعشرين) فكرت أنَّ ما لم يحدث في حياة الناس تأثيره أكبر مما قد حدث. هذا الأعزب في الظاهر لديه في بُعدٍ آخرٍ مأوًى لعائلةٍ متخيلة، عائلةٍ يشيّدها منذ 25 عامًا على الأقل. وفكّرتُ حينها أنَّ كلَّ واحدٍ منا يحمل في داخله «شيء لم»، بمعنى، شيء لم يحدث له، ومع ذلك يمثّل أهمية في حياته أكبر من «شيء نعم»، أي ما حدث بالفعل. ثمّة أناسٌ يخلصون بشكلٍ غامض لـ «شيء لم» ويتخلون عن «شيء نعم»، لكني لا أملكُ أي حالةٍ موثقة مما قد يكون، في حال وجوده، خللًا مرعبًا. فكرت في نفسي: كنت كاتب تحقيقات ماهر، لكن ما يمثل أهمية في حياتي لم تكن تحقيقات حصلت بها على جوائز، وإنّما رواية لا وجود لها رغم أنّها مكتوبة في بُعدٍ مختلف عن البُعد المحيط بي. كثيرٌ من النسوة اللاتي تخلينَ عن أبنائهنَّ لأم مزيفة تمتعنَ بعد ذلك بحياة سعيدة، حياة ملأى بالأطفال، لكنَّ الابن الأهم من بين كلِّ الأبناء كان «الابن لم». بعض هؤلاء الأبناء، من جانبهم، نشؤوا

في عائلات مزيفة تستحق الحسد، لكن ما إن يعرفوا حقيقة وضعهم المزيف لا يفعلون إلا الحنين إلى العائلة الأخرى غير الموجودة، «العائلة لم».

كلُّ واحدٍ منا لديه جرحٌ ينضح بسبب «الشيء لم»، حتى أنَّ «الشيء نعم» مهما كان عظيمًا لا يداويه.

تخيلت صديقي منذ 25 عامًا، يوم لم يولد فيه ابنه الأكبر، وكذلك يوم لم يتزوج فيه، عرفت في الحال ممَّن لم يتزوج؛ لأننا كنا زملاء كلية، وكنتُ أعرف مع مَن يخرج من فتيات، مع أنَّه لم يغرم إلا بفتاة واحدة لم يعايشها ـ أنتبه إلى ذلك الآن ـ خلال كلِّ تلك السنوات، ولم ينجب منها طفلين بالتأكيد، الكبير منهما لا يبلغ 25 عامًا الآن.

في تلك الليلة لم أستطع النوم، ظللت أغزل سيرة موازية لصديقي، تذكرته جالسًا على الشاطئ في عدة مصايف قضاها معنا أنا وزوجتي، حين كنا شبابًا وابنتنا صغيرة. كان له دائمًا غرفة متاحة في بيتنا، حيث اعتاد بمتعةٍ ما عاداتنا العائلية. كنت أقول إنِّي تذكرته جالسًا على الشاطئ بكتابٍ بين يديه، وبعد برهة، يترك الكتاب جانبًا، ويتيه في أحلام يقظة مع ابنين لم ينجبهما من امرأة لم يتزوجها. ربما حين كنت أراه بنظرة تائهة في الأفق كان يرنو إليهما خشية أن يغرقا، ربما كان يبصر كيف يلعب ابناه مع طفلتي. تذكرت حينئذٍ أنَّ صديقي، فيما كانت ابنتي تكبر، كان يطرح عليَّ أسئلة فضولية ذات طابعٍ عملي، غير مبررة لمَن ليس له عائلة. ذات يوم اهتم بمواعيد

التطعيمات، كان يريد معرفة في أي سن يُطعَّم الأطفال، ومن ماذا. ربما كان يحمل دفترًا خياليًّا للتطعيمات، دائمًا ما اهتم بدراسة ابنتي، وكان يدوّن ملحوظة عن سن تعلُّم القسمة والضرب والجمع.

- هل تواجه ابنتك صعوبة في تعلم اللغة أو الرياضيات؟ كان يسأل باهتمام بدا لي غامضًا.

أدركت حينئذٍ مغزى كلِّ تلك الأسئلة، كلما رحت لأُطعِّم ابنتي، كان هو يروح لعدم تطعيم ابنيه. ربما كان يراهما، في هذا البُعد الآخر الموازي لحياته كأعزب بلا أبناء، وهو لا يأخذهما إلى السينما، إلى السيرك، إلى مطاعم البرجر، إلى المتاحف، وتساءلت إن كان في وجود «الشيء لم» تحدث كوارث، كما في وجود «الشيء نعم». هل يصاب الأبناء غير الواقعيين بالحُمّى؟ هل تصيبهم الحصبة أو البرد؟ هل يسعلون بالليل، في السرير، على الجانب الآخر من الممر المعتم؟

وفجأة أدركتُ أشياء كثيرة عن صديقي، وربما عن نفسي، كنت أعدّها حتى تلك اللحظة أشياء غريبة فحسب، ربما في ذاك الوجود لـ «الشيء لم» كانت حياته تعاني انتكاسات لم يكن بوسعي تخيلها، وانتبهت لقسوة ما كنته حين كنت أقول له إنّه رجلٌ بلا هموم، بل كان غارقًا في الهموم، وربما همومه أكبر من همومي بكثير.

كان ثمّة خيطٌ سري بين مادة كبيرة راكمتها حول التبنّي، واكتشاف «الشيء لم»، وفكرتُ أنّي ربما كنت أجمع وثائق لأعمل في شيءٍ معتقدًا أنّي أعمل في شيءٍ آخر. في تلك الليلة صحوت في الرابعة فجرًا، وبدأت أكتب قصة عنوانها «لا أحد».

بدأ اللقاء الثالث بين لوث أكاسو وألبارو أبريل مثل اللقاءين السابقين. هو خرج ليستقبلها في ممر ورش أدبية ورافقها حتى المكتب، مترددًا هل يسبقها أم يسير وراءها، وهي جلست وفكّت أزرار المعطف دون أن تخلعه، وكانت ترتدي بلوفر يشبه بلوفر المرة الماضية، رغم أنّه بنفسجي، وجونلة من القماش تصل إلى تحت الركبة حتى وهي جالسة. فتح ألبارو الكشكول، وحين حسب أنّها جاهزة فتح الماغنتوفون. سعلت لوث أكاسو واحمرَّ وجهها قليلًا، وبدأت تتحدث:

ـ ربما ينبغي أن أبدأ باعتراف أنّي بالأمس كذبت أيضًا لمّا قلت إنّي في مراهقتي أنجبت طفلًا، لقد سمعت في الراديو حينها، وأنا في السيارة، برنامجًا حول التبنّي، وتأثرت حد أنّي تبنيت قضية نسوة انتزعوا منهنَّ أطفالهنَّ بمجرد الولادة، لكنها كانت كذبة ليست كذبة، إذ حين حكيتها كانت حقيقة. هل يمكن أن تفهم ذلك، أن يكون الشيء حقيقة وكذبة في الوقت نفسه؟

ـ نعم، بالتأكيد، ردَّ ألبارو أبريل مترددًا، بينما كان يغضُّ النظر عن جسد لوث أكاسو بصدرها المكشوف. اليوم الفائت كشفت له الترقوة، كان يبدو أنّها تكشف له نفسها على دفعات، رغم أنّها دائمًا ما عرضت نفسها كاملة.

ـ بالفعل، في لحظة الكذب نفسها، تذكرتُ بدقةٍ يومًا دخلت فيه المستشفى بجنين في بطني، ومعي حقيبة صغيرة كانت أمي قد جهزتها لي بكلِّ سرعة، سال مائي بالليل، قبل أسبوع من حساباتي، وفُزِع أبواي. في هذه الظروف، عادةً ما نطلب المساعدة من الجيران، لكن لم يكن جار واحد كان يعرف أنَّي حامل، أن تحمل فتاة في الخامسة عشرة في محيطي، كان عارًا. حتى الشهر الأخير ارتديت حزامًا يخفي حجم بطني، وثيابًا ضيقة ربما آذت الطفل. كنت مهووسة بعدم إيذاء الطفل، وهاجس أمي ألّا يلاحظه أحد. طلبنا تاكسي بالتليفون ونزلنا السُّلم خفيةً. كان أبواي مشغولين باحتمالية أن نصطدم بجارٍ فيحدث لنا أنا أو طفلي شيء، اتجهنا إلى مستشفى راهباتٍ يقع في شارع برينثيبي دي بِرجارا، وكلُّ شيءٍ هناك كان مرتبًا لتسليم الطفل، أو الطفلة بمجرد ولادته إلى زوج لا نعرف عنهما شيئًا. أكدوا لنا فحسب أنَّهما مستريحان، وبتربية دينية، كان الزوج المتلقيان يجهلان أيضًا مَن الأم. وكانوا يفعلون ذلك حتى لا تبقى في المستقبل أي احتماليةٍ للقاء. معذرة، هل يمكن أن تطلب لي قليلًا من الماء؟

أوقف ألبارو أبريل الماغنتوفون، ونهض وخرج من المكتب، حكى لي أنَّه وصل إلى مطبخ ورش أدبية، وجلس مضطربًا على مقعد. في اليوم الماضي، حين قالت له إنَّه، بحسب سِنه، قد يكون ابنها، تخيل هذه الاحتمالية، والآن يضيف إليها احتمالية ألا يكونه،

أو يكونه ولا يكونه في الوقت نفسه؛ إذ كيف يعرف متى تقول هذه المرأة الحقيقة، ومتى لا!

ملأ كوب ماء وهو مضطرب، واتَّجه به إلى المكتب، لم تكن لوث أكاسو قد غيّرت وضعها، رغم أنَّ عينيها كانتا حمراوين. فكّر ألبارو أنَّها ربما طلبت منه الماء ليخرج فلا تبكي أمامه. رشفت رشفتين، وواصلت حديثها:

ـ قبل أن أدخل غرفة الولادة جلست في غرفة أخرى بماءٍ سائل، لكن دون طَلق، ويجب أن أبدأ الطلق. كانت أمي بجواري، طلبتُ منها أن نحتفظ بالطفل، وبدت متزمتة، مع أنَّها تأثرت لاحقًا بعض الشيء، وقالت لو فكّرنا من قبل، لكان ممكنًا أن ندّعي أنَّه ابنها. كانت تلك ممارسة معتادة أيضًا في تلك الأيام: عندما تحمل فتاة صغيرة، تلف الأم أشياء على بطنها، وتدّعي أنَّها حامل، وحين تأتي لحظة الولادة، تدخل الأم المستشفى بصحبة الابنة، وتعودان كأنَّ الأم مَن ولدت، والأم الحقيقية تستحيل أختًا. ثمَّة حالاتٌ كثيرة هكذا، بحسب ما رأيت، ابنة لجدتها، وأخت لأمها، لكنها قالت لي لقد فات الوقت، ثم دخلتُ في دوامة ألم، ولم أستطع الدفاع عن حقي في الاحتفاظ بالطفل.

قرّبتْ لوث أكاسو كوب الماء من فمها، ورشفت رشفتين أخريين، حكى لي ألبارو أبريل أنَّه، لمّا مدَّ ذراعه إلى حافة المنضدة كان البلوفر ملتصقًا بجسدها مانحًا لصدرها رؤية تسببت له في ألم.

- أي نوعٍ من الألم تقصد؟ سألته.
- ألم قديم، مثل ألم طفولي ينبع من أعماق الممر، وتعرف أنّه متوجه إليك. ألم يأتِ من أعماق سيرتي، ويتقدّم من هذا المكان المظلم نحو الحاضر، كنت أنا كطفل خلف الستارة، بنظرةٍ محدّقة في ألم أعشقه.

حدثني كذلك عن الترقوة، وكان مهووسًا بترقوة لوث أكاسو؛ لأنّها بدت له هشاشة متطرفة، لقد راح يكتشف جسدها، في النهاية، كمَن يكتشف مدينة غريبة رغم أنّه، مع ذلك، كان زارها ذات مرة. في ذاك اليوم، في اللقاء الثالث، ظلّت لوث تحكي له عن العودة إلى البيت من دون الطفل:

- بقيتُ ثلاثة أيام في المستشفى، أستعيد نفسي من النّفاس، ثم جهزنا الحقيبة وعدنا إلى البيت، كنت أشعر بثغرةٍ داخلي، ليس فراغًا، بل ثغرة، وخلال شهر لم أخرج من الغرفة. توقفت عن المذاكرة، كنت أتطلع من النافذة، وأرى الفتيات من سني يمشينَ في الشارع، وأدركت أنّي أكبر منهنّ مجتمعاتٍ بقرن. فكرت أنّ حياتي، بداية من تلك اللحظة، ليست إلاّ انتظار أن تعيد لي المُصادفة ابني، أو ابنتي، ثم بدأت الخروج. كنت أروح إلى الحدائق، وأراقب أطفال النساء الأخريات، وأقول لنفسي ربما يكون هذا، وهذا لا. هذا نعم، الآخر لا. معذرة، لا أستطيع أن أستمرّ.

عند هذا الحد، لم يكن ألبارو أبريل يعرف إن كانت ما تحكيه لوث أكاسو حقيقةً أم لا، بالتالي لم يستطع منع نفسه من سؤالها:

ـ لكن قصة الحَمْل حقيقية أم لا؟

ـ قلت لك لا. لا في الواقع على الأقل، لكن نعم في جزء من داخلي. ما من طريقةٍ لكتابة سيرة بهذا المنهج، أليس كذلك؟

ـ هناك طريقة، قال ألبارو مرعوبًا من إمكانية أن تهجر المشروع.

ـ لكنك تحتاج إلى معلوماتٍ حقيقية.

ـ الفانتازيا معلوماتٌ حقيقية، لا تشغلي بالكِ. أكملي.

ـ اليوم كفى، ربما غدًا.

ـ ما معنى «ربما»؟

ـ لا أعرف.

ألحَّ ألبارو لتقسم أن تعود، وهي قالت نعم وغادرت إلى البيت، حيث ماريا خوسيه كانت جهّزت لها شيئًا للغداء مستخدمةً الذراع اليسرى، والعين اليسرى فحسب.

ـ سنرى إن كان سيعجبكِ هذا الغداء الأيسر، قالت.

كان الغداء شوربة سمك غامقة جدًّا تأملتها لوث بدقة قبل أن تضع ملعقتها، وطلبت منها ماريا خوسيه أن تتذوقها باليد اليسرى، وبالجانب الأيسر من فمها، ووافقت لوث بكلِّ طبيعية.

ـ شهية جدًّا، قالت.

ثم جلست كلٌّ منهما إلى طاولة المطبخ وبدأتا الغداء، في البداية في صمتٍ قبل أن تسأل ماريا خوسيه كيف الحال مع ألبارو أبريل.

ـ المسكين، يعيش بفانتازيا أنّه ابني المحتمل.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ بالسن، نعم، أجابت لوث.

بعد الغداء، جلستا على أريكة الصالون، وأبدت لوث اهتمامًا بكتاب ماريا خوسيه حول القطنية.

ـ هذه هي المشكلة، قالت، لا أعرف الآن الكتابة عن شيءٍ أم شيءٍ آخر. على أي حال، كتبتُ هذا الصباح عدة نصوص يُسرى؛ لأحرّك أصابعي.

ـ هل تعرضينها عليَّ؟

ـ أفضّل لا، لكني أتمنى أن تُسدي لي معروفًا: أن تسألي ألبارو أبريل لماذا يمكن أن نبدأ رواية بعبارة «كان لديّ بيت في إفريقيا»، ولا يمكن أن نبدأ بـ «كان لديّ حوض سمك في الصالة». ثمّة حوض سمك وضعه أبواي في الصالون كان بالنسبة لي بنفس أهمية بيت إسحق دنسين في إفريقيا، هل شاهدتِ الفيلم؟

ـ «مذكرات إفريقيا»؟

ـ نعم، وبدأ هكذا: كان لديّ بيت في إفريقيا.

ـ كان لديّ بيت في إفريقيا، نعم، يا للجمال!

ـ هذا ما أقوله لك، أنا أفكر إن كان ألبارو أبريل ابنك، وأنا تزوجته سأكون بذلك زوجة ابنك.

لماذا كنت أجمع مادة حول التبنّي؟ كلُّ شيءٍ بدأ ذات يوم كنت أوقّع فيه نسخًا من كتاب التحقيقات الأخير في مكتبة كبرى، كنت وقّعت نسخًا قليلة، وحين هممت أن أغادر، اقترب مني شاب في الثانية والعشرين، وطلب مني أن أوقّع له، وفيما كنت أوقّع، قال لي إنَّهم يسمّونني في بيته «عَمّهم».

ـ لماذا؟ سألته.

ـ لأنَّك تشبه أبي، يمكن أن تكون أخاه التوأم، لكننا نُسمّيك بالأخ غير الشقيق.

وضحكنا معًا، ماذا كنا سنفعل، ثم كتب لي في ورقة عنوانًا ورقم تليفون، وقال «إن أردت ذات يوم أن تتعرف إلى قرينك».

احتفظتُ بالورقة في جيب الجاكتة ونسيتُها، في الواقع لم أنسها، وإنما ألقيتها في غرفة المهملات، ثم ذات ليلة، بعد فترة قصيرة، استيقظتُ على كابوس، وبدأتُ أفكر بقلق. قلت لنفسي فلنفترض أنَّي وهذا الرجل أخوان توأمان بالفعل، وأنَّ أبوينا فرّقا بيننا بالتنازل عن كلٍّ منا إلى عائلتين مختلفتين. كانت تبدو فكرة روائية جذابة جدًّا (أنا أركض وراء أي فكرةٍ روائية لإيقاف سموم التحقيقات)، رغم أنَّ عيبها أنَّها انطلقت من حدثٍ واقعي، أنَّها ما كان لها أن تخطر لي لو لم ألتقِ بالقارئ الشاب.

وبدأتُ، مع ذلك، أوحي لنفسي بإمكانية أن أكون توأمًا لشخص آخر، وهي إجابة ستوضح لي شعوري الدائم بأنّي شخصٌ غير مكتمل، ناقص، وهو شعور رافقني طوال حياتي. أفهم بكلِّ الطرق أنَّ هذا الإيحاء لعبة بلاغية كانت تدور في رأسي فيما كنتُ أتقلّب في السرير، لم يمرّ قطّ بذهني إمكانية أن أكون ابنًا لقيطًا، وحتى الآن ليس لديّ أي شكٍ في أنَّ أبوَيّ ـ وقد ماتا ـ هما أبواي الحقيقيان.

بعد فترة قصيرة، ارتديتُ يومًا جاكتة توقيع الكتاب نفسها، وعثرت على ورقة الشاب. اتصلتُ بالتليفون مرتين، لكني أغلقت الخط قبل أن يردَّ أحد، كنت أعيش حينها في شارع ألكالا، بالقرب من شارع مانويل بِتْرَا، وبيت توأمي المفترض في شارع بِث بولادور، هبوطًا من شارع دكتور إنكِردو. قررت أن أقترب، ورغم رغباتي في كتابة رواية، إلا أنّي أستمتع بالفعل حين أجمع معلوماتٍ من الواقع، وأعرف أنّي يجب أن أتحرّك بالقوة، إذ لا تعرف أبدًا عنوان التحقيق. ركبتُ الأوتوبيس مدفوعًا بالقوة، وبعد برهةٍ وجدتني أمام باب بناية «أخي». كان بيتًا من بيوت الطبقة الوسطى، يقع في حيّ للطبقة الوسطى كان يمكن أن أسكنه أنا لولا أنّي أحب البيوت القديمة بالأسقف المرتفعة، والمطابخ الواسعة. على ناصية الشارع ثمّة كشكٌ لبيع الجرائد، اقتربت منه واشتريت صحيفة، وأنا ألاحظ ردود فعل البائع، لاحظت أنّه ينظر لي مستغربًا، كأنّه يعرفني ولا يعرفني في الوقت نفسه، كان يكفي أن أعطيه خيطًا من الأمان؛ ليعدّني شخصًا لا أكونه.

بالصحيفة تحت إبطي، عدتُ إلى مدخل بيت «أخي»، ووقفت في الرصيف المواجه له، وتمشيت من جانبٍ لآخر بخطوات صغيرة، كان حينها عندما بدأت أفكر في التبنِّي كمادةٍ لتحقيقٍ كبير. أقصد تحقيقًا روائيًا كبيرًا. تخيلت أنَّ العالم حافل بقصص واقعية شبيهة لقصة أتخيلها في تلك اللحظات، وأنَّها جاهزة لأول مَن يخطو نحوها. ومثارًا بالحاجة إلى البدء في أقرب وقت، أديت حركة العودة إلى البيت، وحينها رأيت نفسي قادمًا من الرصيف المقابل في اتجاه مدخل البيت، قلت «رأيت نفسي قادمًا»؛ لأنِّي بالفعل كنت رجلًا يخطو ببطءٍ نحو بيت «أخي»، ورغم أنِّي رجل خمسيني، إلا أنَّ صورتي عن نفسي صورة شاب، ما زلت أرتدي ملابس كاجوَل، ملابس شبابي نفسها، ورغم أنِّي اضطررت للإقلاع عن التدخين، والسيطرة على الشرب قدر المستطاع، إلا أنِّي قادر على السهر والعمل في اليوم التالي. لكنَّ النسخة المكررة مني وتسير على الرصيف المواجه كانت ترتدي ربطة عنق، وجاكتة زرقاء، وأظنُّ بنطلونًا رماديًا من القماش، كان شعره أقصر من شعري، لكنه ممشط للوراء أيضًا. أدركت حينها ارتباك بائع الكشك، وأنا ظللت مرتبكًا لثوانٍ عند رؤيتي خارج ذاتي بهذه الموضوعية، وأدركتُ حينها أنِّي كهل، أو ربما تحررت بمعجزةٍ من كوني كهلًا مثل رجلٍ فتح الباب، وتاه في الظلمات، وأراه من ظهره.

عدت إلى البيت مضطربًا، وجلست أمام الكمبيوتر دون أن أعرف من أين أبدأ، وفي الحال رنَّ التليفون: كانت زوجتي السابقة

تدعوني إلى العشاء مع ابنتنا، وقد عادت من برلين، حيث تعمل كأستاذة للفلسفة. رغم أنّي وأمها انفصلنا، وهي لا تزال مراهقة، إلا أننا لم نستطع قط أن نلتقي بمفردنا: لا نعرف ماذا نفعل دون وسيط بيننا، قلت لها لا، لا أستطيع، اتفقنا أن نتغدى في بيتها في اليوم التالي. حين أنهيت المكالمة تساءلت ما معنى الأبوة بالنسبة لابنتي، ولا حتى كنت أعرف ماذا تعني بالنسبة لي، مع ذلك ظللت مهووسًا بالمسألة. تلك الليلة بالفعل قضيت عدة ساعات أبحر بالإنترنت بحثًا عن وثائق، وتأكدت أنّ هناك عدة جمعيات تجمع أشخاصًا كانوا يبحثون عن آبائهم الحقيقيين، أو آباءً يبحثون عن أبنائهم. بعد أيام قليلة من هذا الحدث صادفت ألبارو أبريل في حفل ناشرته. حتّى تلك اللحظة لم أكن أعرف أنّه ابن لقيط، ولا كنت أعرف إن كان لقيطًا بالفعل، غير أنّ خيوط الحبكة ـ كما نرى ـ كانت تجمع مصالحه مع مصالحي.

في أثناء ذلك، كتبتُ ونشرتُ قصة «لا أحد» في الجريدة، كانت القصة تروي حكاية شخص يُسمّى لويس رودو، وأنه ذات يوم، بعد أن انصرف موظفو دار نشر صغيرة يمتلكها إلى بيوتهم، ردَّ على مكالمة، كان يكره الرد على التليفونات، لكنه رفع السماعة؛ لأنّه رنَّ بإلحاح.

ـ لويس رودو؟ سأل صوت من الجانب الآخر.

ـ نعم...، ردَّ بترددٍ ملحوظ، كأنَّه ليس متأكدًا من أنَّه هو، أو ربما مستعد لتغيير هويته بحسب مَن سيكون على الجانب الآخر.

ـ أنا لويسا، ابنة أنطونيا، أضاف الصوت.

التزم رودو الصمت للحظات، وهو يجمع الزمن، ويرتبه ويوزّع مواد الماضي؛ ليهضم مكالمة تفتح عاطفةً عمرها 20 عامًا.

ابنة أنطونيا.

كان لويس رودو عشيقًا لأنطونيا منذ 20 عامًا، بعد أن تزوج بقليل، مدفوعًا بالحاجة إلى خوض مغامرة عاطفية اعتقد أنَّ بوسعه أن يمسك زمامها. كان يمارس الزنا كرياضة عاطفية؛ ليختبر قدرة مشاعره، وكان ينتقل من العشيقات إلى الزوجة بحيطة تتضاءل مع الوقت، طامعًا في معرفة ما حدوده.

كانت حدوده أنطونيا، امرأة تنتظره ابنتها الآن على الجانب الآخر من التليفون، وبنفس طريقة شبكية عين الغريق، وهي تراجع تاريخه في أجزاء من ثانية، تذكّر لويس رودو، بينما يقبض على السمّاعة بأنفاسٍ مكتومة، أنَّه بعد قليل من فسخ علاقته بأنطونيا واعد ذات يوم زميلةً في غرفةٍ بأحد الفنادق، كان قد جذبها بذريعة اتفاقٍ بين ناشرين، وهناك انتبه إلى أنَّه فقد ميوله كزانٍ: لم يكن ينتظر أن يعثر في هذا النشاط السري على رسالة منجية، هكذا انسحب من الزنا؛ لأنَّ ثمَّة تفاوتًا لا يمكن التسامح معه بدا له بين اللذة والأذى. لاحقًا، لمّا أقلع عن التدخين كنتيجةٍ لحسابات اختيارية من النوع

نفسه، بدأ يشرب بشكلٍ معتدل، وعثر في الكحول وحده على توازنٍ يمكن تحمّله بين التدمير والمتعة.

ـ لن أسقط، قال في النهاية.

ـ معذرة، ربما التبس عليَّ الأمر، أضاف الصوت من الجانب الآخر للخط التليفوني، وأغلقت الخط.

نحّى لويس رودو مسوّدة كان منهمكًا في قراءتها (رواية مستهلكة، عاطفية، ربما تجني أرباحًا، لكنها تكلّفه من صورة الدار)، واستسلم للخوف. لقد ظلَّ سنواتٍ ينتظر تلك المكالمة، ويعاني مقدمًا بسببها، وكان يعرف مدى قلقه حين تأتيه، لقد حسب كلَّ شيءٍ بدقةٍ حساب موازنة العام، وتحقق بدهشة أنَّ كميات التأثر والهلع تتفق مع توقعاته.

ورغم أنَّه تأخر، إلا أنَّه عمل لساعةٍ إضافية شرب فيها بشكلٍ معتدل، وقرأ الرواية المستهلكة بطريقةٍ ميكانيكية دون أن يعاود رنُّ التليفون، بعدها سحب المفاتيح وعاد إلى البيت، وهناك أخبرته زوجته أنَّ التليفون رنَّ مرتين.

ـ لكنهم أغلقوا الخط، أضافت.

ـ ربما يكون «لا أحد».

ـ قال ثم فكّر *بينما يساعدها في إعداد* العشاء في أنَّ تلك العبارة قالها بطريقةٍ ميكانيكية: *ربما يكون «لا أحد»*. أغلب الظن، مع ذلك، أن «لا أحد» هي مَن كانت تتصل، أو بعبارة أفضل، **لا أحد**، بحروف واضحة، هي **ابنة لا شيء**، بحروف واضحة

كذلك. تذكّر حينئذٍ، وهو يقطّع الطماطم إلى شرائح، أنّ علاقته بأنطونيا حين أوشكت على الانتهاء، شعر فيها بشيءٍ غريب: تهديد دون وجهة... تحذير ما. في كل الأحوال، امتلأ الجو العاطفي بنبوءات شؤم، وشقة اعتادا على اللقاء فيها بعد الغداء، قريبة جدًّا من دار النشر، بدأت تبدو له فخًّا، شركًا يخشى أن يظلّ مقيدًا فيه للأبد بطريقةٍ غامضة.

بدأت تهجسه فكرة أنّ أنطونيا تحاول عبر ابنة تمديد تلك العلاقة المحتضرة، وكانت الأيام الأخيرة للزنا جحيمًا مسبقًا من الشعور بالذنب عاشه لويس رودو.

ـ هل تتناولين حبوبًا، أو شيئًا شبيهًا؟ كان قد سأل أنطونيا في المرة الأولى، قبل أن يضاجعها.

ـ نعم، نعم، لا تشغل بالك، أُدخل، قالت له.

ولويس دخل بلا حيطة، لم يحسب حينها إمكانية أن يقعا في الغرام، ولا في حجم كسله لفسخ كلِّ شيءٍ والبدء من جديد.

كانت أنطونيا متزوجة بدورها، وكان يمكن أن تنجب من زوجها، يقول لويس رودو لنفسه ليهدّئ قلقه، واصفًا خيالاته حول حَمْلٍ يقض مضجعه بأنّها مخاوف عصبية. لمّا التزمت هي الصمت أكثر من دقيقتين، سألها إن كان حدث شيءٌ، وهو يخشى أن تكون قد حملت منه.

ـ ماذا بكِ؟

ـ لا شيء.

لا شيء، بحروفٍ واضحة، وكانت هذه الـ **لا شيء** جنينًا سيغدو **لا أحد... لا أحد**، من حيث الوجود، قد يبلغ الآن 20 عامًا، وكان لويس رودو يتابع نموه خطوة خطوة منذ فسخ مع أنطونيا، لم يمرّ يومٌ واحد من حياته دون أن يفكر فيه (فيها)، رافقه/ها إلى المدرسة والطبيب أكثر من ألف مرة. وفي بعض أمسيات الأحد، حين يشخص بنظرةٍ تائهة، متظاهرًا بأنّه يقرأ الجريدة، كان يتخيل بكلِّ واقعية أنّه يصطحب **لا أحد** إلى السينما، وإلى السيرك، وإلى حديقة الحيوانات. كان يعرف بدقةٍ ملمسَ هذه اليد المتخيلة، حجم أصابعها، رطوبة عرقها، وحين يأتي الصيف ويروح إلى الشاطئ مع زوجته، لم يكن غريبًا أن يبقى شاردًا، متأملًا الأفق، ويحدث نفسه: لا بدّ أنّ **لا أحد** في الرابعة الآن، أو في السابعة، أو السادسة عشرة. وفي أجندته، كان قد أعدَّ تقويمًا للتطعيمات الطفولية؛ ليعرف بالتحديد مواعيد تطعيم كلِّ سِن، ولأنه لم يستطع إقرار إن كان **لا أحد** ولدًا أم بنتًا، راح يرسم مع الوقت وجهًا ملتبسًا، على الحدود، لكنه مال الآن إلى الجانب الأنثوي دون الحاجة إلى إضافة شيءٍ إلا تعديلين بسيطين.

أحيانًا، حين كان هذا الهذيان يبلغ درجة لا تُحتمل من الواقع، كان لويس رودو يتراجع مكررًا أنّ هذه المخلوقة، **لا أحد، لا** وجود لها خارج رأسه، وكان ذلك يمنحه مزيجًا من الراحة، وخيبة الأمل بنسبٍ متساوية، وبين السعادة والتعاسة يدور حجم الهوس. في زواجه، لم يكن قد أنجب، وهكذا صارت **لا أحد**، وهي تملأ

ـ دون مجازفة ظاهرة ـ هذا الغياب، تعطيه شعورًا بالذنب المعقول أمام زوجته. كلُّ ذلك، بالتأكيد، فيما تواصل **لا أحد** طبيعتها كمنتج خيالي، لكنها الآن تهدد بتحققها، وحتى الآن، تتحدث وقادرة على الاتصال به تليفونيًّا.

عند هذه النقطة، أُصيب لويس رودو بإحباطٍ مزمنٍ تجلّى في عَرَقٍ سيّال أغرق جبهته، وشعور بالفراغ في معدته، ترك السكين والطماطم في منتصف التقطيع، وراح يجلس إلى منضدة المطبخ.

ـ ماذا بك؟ سألته زوجته.

ـ لا شيء، قال وهو يشعر بأنّه وضع يده على الجرح؛ **لأنَّ لا شيء** هو أب أو أم، **لا أحد.** مجرد هبوط.

نظرت إليه زوجته بتعاطفٍ، وواصلت إعداد العشاء، وهي تسأله عن حال دار النشر، وكانت تمر أحيانًا بصعوباتٍ مالية، وأرجعت استياء زوجها إلى مشكلاتٍ مؤسسية، رغم أنَّ الأوضاع تحسنت في الفترة الأخيرة، وعادت البنوك لتفتح له خطوطًا ائتمانية، بل وظهرت دار نشر كبيرة مستعدة لشراء البراند، وتكليف لويس رودو بالإدارة. لم تكن مشكلات اقتصادية، رغم أنَّه لم يقل إنَّها ليست كذلك، إذ كان يفضّل أن تظنَّ زوجته هكذا بدلًا من وصولها للشك في دلالة مخاوف تتسارع وطأتها.

تعشّى دون شهية، وانصرف سريعًا إلى السرير، هي ظلت لتشاهد أحد أفلام الرعب بالتليفزيون. بعد برهةٍ سمعها تدخل فتصنّع النوم،

تحرّكت زوجته في ظلام غرفة النوم محاولةً ألا توقظه، مع أنّها اصطدمت مرتين بشيئين نائمين صادفا خطواتها في الظلمة.

ـ هل أنت نائم؟ سألت عندما انزلقت في النهاية بين الملاءات.

ـ نعم، قال وانتهت الليلة.

أو لم تنتهِ كليةً؛ لأنّ التليفون رنّ مرتين في تلك الليلة، ولويس رودو، الذي كان متوترًا ومنتظرًا أن تحدث هذه المكالمة، رفع سمّاعة الكومودينو دون أن تستيقظ زوجته، وفكّر أنّها ربما تتصنع النوم. بدايةً من سِن معينة يغدو النوم واليقظة، مثل الماضي والحاضر، أو الحقيقي والمزيف، متجاورين، ملتبسين. وفي المرتين، سمع أنفاسًا على الجانب الآخر، ثم صخب السماعة وهي توضع على القرص. لا يمكن أن يكون **إلا لا أحد**، ولا يبدو أنّها مستعدة لإطلاق فريستها بعد أن قبضت على رقبتها، تساءل رودو من أين تتصل. ربما من مدريد، مع أنّ أنطونيا حدثته دائمًا عن شغفها ببرشلونة، وكانت تقول أحيانًا:

ـ إن انفصلت عن زوجي وأنت هجرتني، سأعيش في برشلونة.

مع شقشقة الصبح، كان قد توصل لنتيجة أنّها لا تهاتفه من مدريد ولا من برشلونة، وإنّما من الماضي. الماضي يتجلى فجأة مثل منطقة في الوعي تطلق منها الأشباح رسائل إلى الحاضر.

وصل في اليوم التالي منهكًا إلى دار النشر، مثل مجرمٍ بلا ذريعة، وحرّك من جانبٍ إلى آخر أوراقًا راقدة على المكتب، حتى مرروا له في منتصف الصباح مكالمة من شخصٍ فضّل عدم ذكر اسمه.

ـ أنا لويسا، ابنة أنطونيا. ، كرر الصوت مجددًا كأنّها تهاتفه للمرة الأولى.

ـ كيف حال أمكِ؟ سأل لويس رودو.

ـ ماتت، أجاب الصوت دون أي تأثر، وبدت كمَن تؤدي عملًا روتينيًّا.

«أقسى طريقة لتصفية الحسابات»، قال لويس رودو لنفسه.

ـ أتحبين أن نلتقي؟ سأل في النهاية.

ـ أتحب أنت؟ سألته المرأة.

هو قال نعم حتى لا يتوه في إجراءاتٍ غير مجدية، هكذا اتفقا على ساعة الغداء في مطعم قريب من دار النشر، كان رودو يرتب فيه غداءات العمل، ربما لَم يكن لقاؤه بها إلا مجرد عملٍ يناسبه تصفيته في أقرب وقت.

أحيانًا، كان ثمَّة فكرة خيالية تسيطر على لويس رودو مضمونها أنَّ شخصيات الكتب المنشورة لديه ستخرج له من أعماق الصفحات، وتطلب منه كذلك نسبتها في الأرباح، أو اهتمامًا مماثلًا لما يتلقاه

المؤلفون، وفي أغلب الأحيان يستعدون لاستبدال الأموال بالمديح. ربما لويسا شخصية تتعجل الآن فكرة وجودها، لا تريد إلا نصيبها من حياة لويس. قال لنفسه «إنَّها ربما تعود إلى مناطق خيالية جاءت منها إن استطعت الوصول معها إلى اتفاقٍ معقول»، لم يكن رودو يجهل أنَّ جزءًا من الدَّين سيدفعه من عاطفته، أغلب الظن أنَّها عاطفة رخيصة، عاطفة المسلسلات الدرامية، مثل ما يطلبه من أغلب الكُتَّاب في حميمية المكتب. يا ليتها ترضى بالعاطفة فحسب، لكنَّ كلَّ تفاوضٍ عاطفي يتضمن بنده الاقتصادي، وفكَّر في هذا كذلك.

وفيما كان يحسب حساباته الاقتصادية، التفت إلى أنَّه لم يتأثر حتى بموت أنطونيا، كان قاسيًا فوق ما يتصور، أو أنَّه بلغ سنًّا بائسة لا يغدو عندها موت الآخر إلا تأكيدًا على استمرار المرء حيًّا، وعمل الإحصائيات لصالحه. هكذا، فيما تقترب ساعة الغداء، بدلًا من الوقوع في الحسرة، وقع في عمل حساباتٍ اقتصادية، تخيّل أرقامًا قابلة للزيادة والنقصان بحسب حجم رقتها، وفي الساعة الثانية غادر مكتبه، واتَّجه إلى ماضيه سيرًا، ووصل أكثر شيخوخةً مما كان عليه.

لم يقولا كيف سيتعرف أحدهما إلى الآخر، لكنَّ لويس رودو تعرّف في الحال إلى نسخة أنطونيا الجالسة إلى منضدة في العمق، منضدة الزناة، حدّث نفسه وهو يكتم أنفاسه، وهو يقترب من الفتاة، يقترب من **لا أحد**، من فتاة رافقها مراتٍ كثيرة في خياله إلى السينما، وحديقة الحيوانات والطبيب، والمدرسة. قال لنفسه «لو أنَّها عرفت كلَّ ما فعلته من أجلها خلال عشرين عامًا لم تكن فيها

هنا... الآن صارت واقعًا، للغرابة، في لحظةٍ أستعد فيها لإنكار أشياء عليها ومفاوضتها، ربما لأُريَها».

تبادلا القُبُلات محتفظَين بمسافةٍ مبالغ فيها، ثم بدأ يتكلم بشكلٍ سريع فيما يدرسها بتحديقٍ أكبر ممّا كانت تتخيله، كانت تشبه أنطونيا جدًّا، بالتأكيد، لكنها كانت أنطونيا بلمحةٍ شيطانية، إذ عندما تبتسم تغمض عينًا يُسرى بطريقةٍ غير عادية، ويظهر نابٌ خارج مكانه فتستحيل، فجأةً، فتاةً أخرى. كانت قرينًا غير متطابق، وبهذا المعنى، كان في القرين شيءٌ مهدّد، وشؤم، أما بقية هيئتها، فكانت ترتدي ما يمكن أن ترتديه أنطونيا نفسها بعد عشرين عامًا: بلوزة بيضاء شديدة الأناقة، تكشف فتحتها حافة ملابسها الداخلية.

بحث لويس رودو عن نفسه في ذاك الوجه، في تلك اللثة، أيضًا في هيكل الفتاة الجسدي، لكنه لم يعثر على نفسه، قال لنفسه إنَّ التشابه الجسدي يخلقه، بنسبةٍ كبيرة، التعايش والمحاكاة والانعكاس. وحين استطاع الكفُّ عن الحديث عن الطقس، والمرور، وساعاتٍ يقضيها في مدريد في التنقل من مكانٍ إلى آخر (من الحاضر للماضي، أراد أن يضيف هذه العبارة)، كلُّ ذلك بشكلٍ مضطرب وفوضوي، استجاب لتعبير الفتاة المتسائل، وسألها في النهاية عن سبب وفاة أمها.

ـ ماتت بسبب مرضٍ طويل ومؤلم، أجابته بجديةٍ غير مبررة رغم الصياغة المضحكة.

خشي لويس رودو من أن تكون فتاة حمقاء تمامًا، وهو موقف لم يستعد له، لكنه سبّب له في الحال مزيجًا من الراحة وخيبة الأمل بنسبٍ متساوية (الشغف بالكوكتيل العاطفي المتوازن جيدًا). لو كانت ساذجة لا يمكن أن تكون ابنته، مما يتسبب بطريقةٍ ما في حسرةٍ كذلك. فرغم مخاطر ظهورها، ثمّة شيءٌ مثير في هذا اللقاء، إذ يربط طرفين من الوجود يشبهان قوسين يحددان فترة زمنية.

فكرة أنَّ حياته كلّها، منذ فسخ مع أنطونيا، بين قوسين، انقطاع، وقفة، سبّبت له دوخة مفرطة، وبالتالي اعتذر ونهض ليدخل الحمّام. وهناك، وحيدًا، عاد ليعدّ اختياره العاطفي السابق خاطئًا. ربما كان ينبغي أن يهجر زوجته ويهرب مع أنطونيا. كم حياة يدمّرها الكسل، ربما كانت حياته واحدة منها، لكن لو كانت لويسا ابنته بالفعل، سيغلق هذا القوس في تلك اللحظة، وتتاح أمامه فرصة استعادة حياته الحقيقية حتى لو على حساب التفاوت المفرط بين اللذة والألم، لكن لا، تلك الفتاة تبدو حمقاء، وكان ذلك أفضل كثيرًا من أن تكون حمقاء تمامًا، أو خيالية تمامًا، كما كانت من قبل.

ـ إذن كانت ضحية مرضٍ طويل ومؤلم، قال وهو جالس ليمسك بطرف خيطٍ انتهى عنده الكلام.

ـ كما قلت لك، وحدثتني عنك، في النهاية لم تكن تتكلم عن شيءٍ آخر، لذلك اتصلت بك.

صَمَتَ لويس رودو وحدّق فيها بوقاحة ذكر إلى فتاة، رغم أنَّه لم يحسم إن كان تعبيرها المتسائل نتيجة لسذاجتها أم لحسابات.

ـ بمَن اتصلتِ يا لويسا؟ سألها.

ـ بمَن بحسب اعتقادكِ؟

لم يجاوب لويس، كان ينتقل من موضوع إلى آخر منتظرًا أن تتخذ الفتاة المبادرة، أن تضع بنود التفاوض الاقتصادي أو العاطفي، كلاهما سيان. المهم الاتفاق على قانون اللعبة في الحال، لكنَّ لويسا كانت تلعب الكسل، وربما هي كسولة بطبعها. كانت ترد بمقاطع على أسئلة محايدة، وتردُّ على الأسئلة غير المحايدة بأسئلةٍ كانت تبدو صدًى لأسئلة لويس، حكت دون رغبة أنَّها تدرس التاريخ، وأنَّها تعيش وحيدة في شقة، ونظرت له أكثر من مرة بالشوكة في منتصف الطريق بين الطبق وفمها، كأنَّها تبحث في وجه لويس عن مزايا حدّثتها عنها أمها، وربما لم تعثر عليها.

ـ هل تحتاجين إلى شيء؟ سأل لويس رودو المحبط في النهاية.

ـ هل تعتقد أنِّي أحتاج إلى شيء؟ سألت هي بدورها، كأي صدًى.

في حالة توتر، وصلا إلى الحلو، ومن الحلو إلى القهوة، طلب لويس رودو كأس كونياك أعطاه الجرأة اللازمة ليطرح سؤالًا قمعه حتى تلك اللحظة:

ـ وأبوكِ؟

ـ قالت لي أمي إنَّه مات قبل أن أولد، ردت الفتاة وهي تُحدِّق فيه بطريقةٍ ذات مغزًى، وكان يبدو مستحيلًا الوصول لنهاية، لقانون لعبة شعر معها بأنَّه يخسر حتى ما راهن عليه. حينها،

وبشكلٍ مفاجئ، وربما في لحظةٍ واحدة فحسب، رأى نفسه منعكسًا في الفتاة كأنها واحدة من مرايا معلقة بجدران مطعم حين تنظر لنفسك فيها لا ترى وجهك فحسب، وإنما وجه عدوك كذلك، لقد تذكّر تكنيك مفاوِض استخدمه كثيرًا وبنتائج مستحسنة، تكنيكًا يكمن في تجنب الدخول في الموضوع حتى يقترب الطرف الآخر إلى أرضك، محبطًا من بطء تقدم الحوار، وحينها تمزقه، أين قد تعلمت لويسا هذه الحركات؟

قال لنفسه لكن لا، أنسب إلى الحسابات ما ليس إلا سذاجة نقية. ما من شيءٍ هنا، ولا حتى نصّ خيالي، ولا حبكة رواية رخيصة. الآن سأودعها وخلال السنوات المقبلة ستستمر **لا أحد،** بحروفٍ واضحة، تنمو في ضميري، تكبر في داخلي. ربما تتزوج وتمنحني أحفادًا، أحفادًا متخيلين أكثر سهولة في تربيتهم من الأبناء الحقيقيين. يا الله!

ـ هل كنتَ تقول شيئًا؟ سألته من وراء ابتسامة أحالتها لفتاة أخرى.

ـ يا الله! قهوة سيئة، أضاف وهو يرشف البقايا من قعر الفنجان.

ـ إن أحببت، أدعوك على قهوة في بيتي، هو قريب من هنا، والقهوة واحدة من أشياء نادرة أجيد عملها، هذا على الأقل ما كانت تقوله أمي.

ـ المسألة أنّي يجب أن أكون في الدار في الساعة الأولى من المساء.

ـ إذن لن تعرف أبدًا جمال قهوتي، ردَّت بنبرة إثارة لا تُحتمل.

ـ على البركة، قال لويس رودو مضحيًا بالأخضر واليابس، فلنجرب القهوة.

ما إن خرجا إلى الشارع، ودارا إلى اليمين، تيقن لويس رودو من أنَّ الشقة المتجه إليها هي شقة لقائه، منذ عشرين عامًا مضت، مع أمها. سارا مئة متر بالفعل، ودارا إلى اليمين مرة أخرى، ودخلا شارعًا ضيقًا ومظلمًا، بأشجارٍ أغصانها تلامس نوافذ البيوت، شارع زناة، كَمين. دخلا، كما هو متوقع، العمارة الثانية، ومنها إلى الطابق الثاني، وفيما كانا يتقدمان في هذه الأماكن، كان لدى لويس رودو انطباعٌ بأنَّه يتسللٍ إلى لوحة بارزة، إلى رسمة يتجول فيها بامتداد حياته الماضية. كلُّ شيءٍ كان مطابقًا لِما كان يتذكره، لِما قد رآه في رأسه كلّما كان يزور هذا البيت بقوى ذاكرته. كلُّ شيءٍ كان أكثر استهلاكًا، بالتأكيد، مما أثار فيه شعورًا سلبيًا، مثل ابتسامة فتاة استحالت، من أنطونيا، تهديدًا.

بدت شقة الزاني بالفعل أكثر تهديدًا من ذي قبل، رغم أنَّ الأثاث كما كان منذ عشرين عامًا، في الوضع نفسه، أطلَّ لويس رودو على المطبخ الأمريكي في أحد أطراف الصالة الصغيرة، ونظر إلى فولاذ الحوض المقاوم للصدأ باستغرابٍ نظر به من قبل وهو يغسل كوبًا أو يفرّغ فيه دلو ثلج، كان الفولاذ قد فقد بريقه، لكن مَن لم يفقده! هو

كذلك لم يعد يتمتع بالنظرة الحمئة القديمة، ولا درجة من الإثارة تسبّبها الأماكن السرية والغرف المتوارية، وكان يزيد كلَّ عامٍ عدة جرامات، وبالتالي زاد وزنه عدة كيلوجرامات.

بدا له أنَّ الشقة مؤثثة بأورام، لا بكراسي ومناضد، أورام تعرقل خطواته، وهو يتوغل داخل وعيه. هو نفسه كان لديه شيءٌ من الورم الحائر بين تلك الكتل المظلمة. اقترب من النافذة وشاهد شارعًا ضيقًا، سريًا، وشجرة تلامس أغصانها الزجاج. تذكّر يومًا منذ عشرين عامًا رأى فيه عش عصافير بين غصنين حين أطلَّ بإحساسٍ مشابه مثل إحساسه الآن، كان قد صرخ في أنطونيا لتنهض من السرير وتقترب لترى المشهد، وتأمل كلاهما أداء أربعة عصافير صغار داخل محمية طبيعية تُسمَّى عشًا، وظلّا مشدوهين من أنَّ أشياء كهذه لا تزال ممكنة الحدوث في مدريد.

حينها، ومدركًا لغياب العش، ولطبيعة ورم غدا عليها كلَّ شيءٍ منذ ذلك الحين، بما في ذلك أنطونيا، وقد استحالت لويسا، وتعد القهوة بسذاجة وراء ظهره، انفجر في البكاء وهو في النافذة. لم يكن بكاءً هائلًا، حتى الفتاة لم تنتبه له. كان يبكي، إذن، كمحكوم عليه بالإعدام بعد انتهاء كلِّ الإجراءات الإدارية، ونفاد كلِّ المخزون العاطفي، كان يبكي باستسلام مطابقٍ لاستسلام يقع مع الحوادث الطبيعية، وكان بكاؤه بالتحديد هو هذا: حادثة طبيعية أكثر منه أداة عضوية؛ ليدافع عن نفسه من حسرة يشعر بها على نفسه. للحظةٍ، فكّر في زوجته وتخيلها في مجرةٍ أخرى، ربما يكون لها كذلك نافذة

سرية تبكي، وهي تتطلع منها لأنَّها بلا عش، أو لأنَّها صار لها عش، فكلاهما سيان. كان يبكي من الشيء ونقيضه، من البرد والحر، من الندرة والغزارة، لكنه كان يبكي فوق كلِّ شيءٍ من الزمن، من مرور الزمن وهو يختزل كلَّ شيءٍ لا في رماد، مما يفترض نوعًا من العظمة، وإنَّما أحد أشكال الوجود البائس، الخَرِب، الفارغ.

أنطونيا تلك، وتُسمَّى الآن لويسا، تقترب منه وتنظر إلى الخارج في محاولة لمشاهدة ما يثير عاطفته بقوة، كانت بالفعل نسخة مصغرة من أنطونيا الزمن الآخر، مثله تمامًا وقد غدا الآن لويسًا أصغر، واستحال ظلًّا لنفسه، كما يقول الكليشيه بصوابٍ كبير، إذ حين تحسس ذراعُه خصرَ الفتاة وجذبها نحوه، لم يحس بإحساسٍ كان ينتظر حدوثه. والمسألة أنَّه لم يلمس ذاك الخصر بأصابعه، وإنَّما بظل أصابعه، مثلما كان ظل شفتيه ما اقترب ليقبّلها ولاحظ أنَّهما نوعٌ من الفلين، كأنَّ أحدًا قد وضع شاشًا من اللامبالاة بين أعضائه والواقع.

والفتاة استسلمت للفعل بسلبيةٍ استسلمت بها للحديث في أثناء الغداء، وبحركاتٍ خبيرة، جرّها لويس إلى الغرفة الصغيرة، حيث كان في انتظاره سرير زمنٍ قديم، وملاءات زمنٍ قديم باتت كفنه الآن، وقلّعها دون أي مقاومة.

ـ من أين جئتِ بهذه الشقة؟ سألها.

ـ ورثتها عن أمي، كان مكانها السري، غرفة حريتها، ألا تروق لك؟

- تروق لي، قال لويس وواصل التجوال بجسد الشابة الآن بنهم مَن يدخل غرف بيتٍ قديم، بحثًا عن بقايا أنطونيا بالتأكيد (المكمن المميز، الحلمة النافرة، شامة الكوع)، لكن، فوق كلِّ شيءٍ، بحثًا عن بقايا ذاته، ولم يعثر على أيٍّ منها. هذه الحمقاء ليست ابنته، لا شيء منه في ذاك الجسد، هكذا بوسعه أن يستسلم دون ذنب، بل وبكل براءة.

- هل تتناولين حبويًا، أو ما شابه؟ سأل قبل أن يدخلها.

- نعم، نعم، لا تشغل بالك، ادخل.

كان الزمن مرآة: تعكس الأشياء أكثر من الأبطال، إذ رنَّ ذاك السؤال وتلك الإجابة. فقط عند انتهاء جلسة الغرام، وانتهت بالخبرة أكثر من العاطفة، تذكّر لحظةً سأل فيها أنطونيا سؤالًا مطابقًا، وإجابتها، الفارق الوحيد، ولاحظه في نظرة الفتاة فيما كان يرتدي ملابسه ليعود لدار النشر، هو أنَّ أنطونيا قالت له الحقيقة، ولويسا كذبت عليه، ربما يتحقق التهديد بأي طريقة، حتى لو متأخرًا عشرين عامًا، يا للاختلال! فكّر، يا للغرابة!

- أهاتفك غدًا، قال لمّا رافقته لويسا لتوديعه على باب الشقة، وهي مستورة بملاءة على هيئة كفن.

في تلك الليلة، حين وصل إلى البيت، سألته زوجته مع مَن تغدى.

- مع **لا أحد**، أجابها، ومع أنَّه قال **لا أحد** بحروف واضحة، لم تلاحظ ذلك.

ثم وهو في السرير حَسَب حساباته، وفكّر بقلقٍ أنّه حين تبلغ **لا أحد** الجديدة عشرين عامًا، سيكون هو في الخامسة والستين.

«سأكون أبًا عجوزًا»، قال لنفسه، ربما أبٌ ميت، وعانق زوجته من الخصر، واتّخذ وضع النوم، وضع الموت، وربما وضع الحلم.

تنتهي القصة عند هذه النقطة بالذات. من ناحية، بدا لي حسنًا أن تنتهي في لحظةٍ تبدأ فيها بطريقة ما، رغم أنّها، من جانب آخر، تعطي انطباعًا بأنّها مبتورة. بالفعل، حتى بعد أن نشرتها، ظلت تنمو في رأسي. فكّرتُ أنّي لو تركت الفكرة تنضج، لربما طلعت رواية قصيرة، لقد أضرَّ العمل بالتحقيقات كتابة الخيال، إذ علّمني غلق الأشياء بأقصى سرعة، يروق لي البطء في كتابة الآخرين، لكنني عاجز عن تطبيقها على كتابتي.

مع ذلك، لن أنكر أنّ قصة **لا أحد** تحوي معلومة شخصية. في شبابي، دخلت في علاقة زنا مع سيدة أظنُّ أنّي كنت مغرمًا بها، أقول أظنُّ؛ لأنّ قدرتي على الحب محدودة. كان أجمل ما في هذه العلاقة سريتها، على ما أعتقد. ربما فكرتُ أنّ الشيء المختبئ يفتح ثغراتٍ لأبعاد أخرى. الحقيقة أنّها لم تفتح أي بُعد، رغم أنّ زواجي بدأ بالانهيار، ولم أعد أعرف شيئًا عن تلك المرأة إذ لم تكن مستعدة للبقاء في علاقة بلا أفق. اختفت من حياتي، فحسب، استغرقتُ زمنًا لأنساها، وحين كانت تدق باب ذاكرتي وأفتح لها، كانت تبدو حاملًا، لقد تخيلت خلال فترة أنّها حملت قبل أن تختفي، كانت لعبة بلاغية أيضًا، لكن ثمّة معنى مختبئ في هذه الألعاب.

حين قال صديقي تلك العبارة «لو كان لي أبناء سيكون الكبير في الخامسة والعشرين الآن»، أعتقد أنَّ شيئًا انفجر في داخلي جعلني أكتب في تلك الليلة نفسها قصة **لا أحد.** لو أنَّ هذه المرأة أنجبت طفلًا مني، سيكون الآن في سن الخامسة والعشرين، سن ابنتي الحقيقية. قلت ابنتي الحقيقية، وحانت لحظة الاعتراف بالحقيقة: لست على يقين من أنَّها ابنتي. بعد قليل من ميلادها، تشاجرتُ ذات يوم مع طليقتي على شيءٍ يخصُّ التربية، وفي لحظة محددة، وردًّا على سؤالٍ، قلتُ صارخًا:

ـ أعرف جيدًا ما أفعل؛ لأنَّها ابنتي.

ـ هل أنت متأكد؟ ردَّت هي.

وفي الحال، حين رأت تعبير وجهي، انفجرت في الضحك محاوِلةً تحويل سؤالها إلى مزحة. لكن منذ ذاك اليوم فتح الشك طريقًا إليَّ، ولا يزال مفتوحًا دون إغلاق، لقد ارتبتُ دومًا في أنَّ طليقتي في تلك السنوات، ربما كانتقام لخياناتي، كانت لها مغامرة ما، وربما كانت ابنتي ثمرة لواحدة من هذه المغامرات، وليس لعلاقتنا الزوجية.

بهذه الطريقة خسرتُ ابنتي الحقيقية، إن كانت ابنتي الحقيقية، ومنذ ذلك الحين، لم أستطع إلا رؤيتها كابنةٍ لقيطة، وليست بالتحديد كابنةٍ لقيطة، إذ إننا جميعًا، بطريقة ما، أبناء لقطاء، وإنَّما كبديلة لابنة. لقد أحسنتُ معاملتها، لكني كنت أبًا بعيدًا، وهذا البُعد حدد علاقتنا للأبد، نلتقي حين تأتي من برلين (وأمها أمامها دائمًا)، لكنَّ كلَّ واحدٍ فينا في ضفته، لا أتعاطف معها، ولا تتعاطف معي. تثير

عاطفتي أكثر فكرة ابن خيالي ترعرع كلَّ تلك السنوات في الجانب الخفي من حياتي. ربما أدفع كلَّ شيءٍ من أجل هذا الابن، بالإضافة، أتجرأ على افتراض ألا ينبغي أن أكون أبًا خياليًا سيئًا لهذا الابن. أعتقد كذلك أنَّي ابن بار لأبوين خياليين تبنياني أنا وأخي التوأم. كم أتمنى الآن أن يكون ذلك حقيقة: أن أكون لقيطًا، وأن أنجب ابنًا من امرأة لم أعد أعرف أخبارها كلَّ تلك السنوات.

الحقيقة أنَّ عبارتين قريبتين في التوقيت («في بيتي نُسمّيك العمّ»، و«لو أنجبت أبناءً سيكون الكبير في الخامسة والعشرين الآن») أطلقتا سلسلة وثائق جمعتها حول التبنّي، ونشر قصتي الأولى. لقد تكشّفت لي خيوطٌ كثيرة بشبكةٍ غير مرئية استقر فوقها الواقع، وفي كلٍ منها كنت أتورط أكثر.

بعد يومين من نشر هذه القصة، **لا أحد،** (هل كان العنوان جيدًا؟)، وعند فتح بريدي الإلكتروني، وجدت الرسالة التالية من ألبارو أبريل: «أعطاني أحد الأصدقاء المشتركين عنوانك الإلكتروني. أعجبتني **قصة لا أحد**، أعجبتني جدًا **لا أحد.** كلُّ هذا اللعب بين الواقع والخيال، الغموض حول إن كانت ابنته أم لا... بالأمس هاتفني ناشري ليكلّفني بمهمة: يريد أن ينشر كتاب خطابات الكُتّاب لأمهاتهم؛ إذ نشر العام الماضي كتابًا لخطابات الكاتبات إلى آبائهنَّ، وحقق مبيعات جيدة. طلب مني أن أكتب واحدًا من هذه الخطابات: قصة، في النهاية، لكني لست متأكدًا إن كان بوسعي كتابة قصة، لذلك أثارت قصتك غيرتي. يثير اهتمامي

جدًّا مسألة التأليف في العمل الفني، وهي مسألة لا تختلف كثيرًا عن مسألة الأبوة. هل نحن أبناء آبائنا؟ هل نحن مؤلفو كتبنا؟ هذه الأسئلة تشغل حيزًا من اهتمامي بشكلٍ خاص؛ لأنّي، بالإضافة إلى كوني كاتبًا، ابن لقيط، عندي أم مزيفة ماتت منذ خمس سنوات، وأم حقيقية لم أعرفها قط. إلى مَن فيهما أكتب خطابي؟ لقد كان طلب ناشري بكتابة رسالة إلى أمي تقريبًا في يوم قراءتي لقصتك في الجريدة مصادفة غريبة، حتى نصنّف الحدث. طيب، لن أشغلك أكثر من ذلك. تهنئتي بقصة **لا أحد.** تحياتي، ألبارو أبريل. (ملحوظة: ما زلت أعمل في ورش أدبية مع تلك المرأة صاحبة السيرة، لا يمكنك أن تتخيل ما تتيحه لي من مادة)».

هكذا كان ألبارو أبريل لقيطًا (كيف لن يجد صعوبة في كتابة «*رسالة إلى أمي؟*»). أنفاسي تتقطع تقريبًا، الشبكة راحت تكشف جزءًا كبيرًا من الخيوط. من ناحية أخرى، سرّني تعليقه حول قصتي، لم يهنئني أحدٌ آخر عليها، وأعتقد أنّهم حتى في الجريدة نشروها حتى لا يحبطوني. رددت عليه بالسطور التالية: «شكرًا لتعليقك، ربما تعرف أنّي منذ فترة أجمع وثائق حول التبنّي لكتابة تحقيق، سيفيدني جدًّا معرفة حالتك، هل يمكن أن نتغدى معًا ذات يوم؟ أنت مدعو».

راجعت خلال الأيام التالية البريد الإلكتروني عدة مرات دون أن أجد أي رد. لاحقًا، وعند إعادة التفكير، أدركت أنَّ ألبارو أبريل كان مشغولًا بمسائل أكثر ضرورية.

على الجانب الآخر، كان المشهد كالتالي: ماريا خوسيه، العوراء، كانت قد استقرت بكلِّ أريحية في بيت لوث أكاسو، وقد قبلت وجودها بثقةٍ طائشة بعض الشيء، إن فكّرنا أنَّها لا تعرف شيئًا عنها. في البداية، كانت العوراء المزيفة تنام على كنبة في الصالة، لكنها ذات ليلة تسللت إلى غرفة لوث، وقالت إنَّها خائفة، ولوث وسّعت لها مكانًا بين الملاءات، ومنذ ذلك اليوم تنامان معًا.

ـ نحن امرأتان في براغ، كانت ماريا خوسيه تقول مأخوذة من السعادة. أُنظري، يا له من عنوان رواية! امرأتان في براغ.

ـ لا تقولي أشياء غريبة، تجيب لوث بابتسامة متساهلة.

كانت الغرفة على اليسار لا تزال مغلقة بمفتاح، محتفظةً بسرٍّ لم تتحدث عنه لوث قط. بطريقةٍ ما، كانت الغرفة المغلقة مجازًا عن جانب أيسر تتطلع ماريا خوسيه إلى استعماره داخل ذاتها. ربما تكون محض مُصادفة، وربما تكون لوث أكاسو، وقد رأت شغف ماريا خوسيه بالجانب الأيسر، قد أغلقتها؛ لتجعل بيتها أكثر إثارة مما هو عليه، مثلما حدث حين ادّعت ألم القطنية، أو أنَّها عسراء.

من ناحية أخرى، في واحد من لقاءاتها بـ ألبارو أبريل في ورش أدبية، حددت هذه الغرفة كمسرح لحكايةٍ عاطفية مهمّة، كيف يمكن معرفة الحقيقة؟

لم تكن ماريا خوسيه قد بدأت الكتابة حول ألم القطنية، أو Lum bago؛ لأنّها كانت تحتاج غزو جانبها الأيسر، أو هذا ما قالته.

ـ لا يمكنكِ أن تتخيلي مدى غموض هذا الجانب، في البداية خفتُ أن يكون فراغًا، وأن أقع في الفراغ إن أنا اجتزت محيط الجانب الأيمن إلى الأيسر، مثلما الحال حين كانت الأرض مسطحة، والمراكب حين تصل إلى حوافها تسقط في العدم، لكن من قليل رأيته، هذا الجانب حافلٌ ببناياتٍ سرية، ونباتاتٍ مجهولة.

سواءً كان صائبًا أم لا، كان وصف ماريا خوسيه لهذا الجانب يبدو مستعارًا من قصة حدودية. وكانت لوث تنصت إليها مبهورة، رغم أنّها في أحيان أخرى متساهلة، وفي مقابل تلك الحكايات كانت تغدق عليها بحكايات لقاءاتها بـ ألبارو أبريل، الموضوع الأثير لكلٍّ منهما.

ـ هل يقضم أظافره؟

ـ أظافره لا، قلت لك إنّه يعضُّ شفته السفلية، بهذه الطريقة.

فيما بعد، حين تعرّفتُ إلى ماريا خوسيه شخصيًّا، حصلت على مادة كبيرة عنها، لكن لم يكن سهلًا تمييز الحقيقي من المزيف، ولم أعرف إن كان هذا التقسيم له وجود منفصل في رأسها. حاولت،

عند ساعة انتقاء بعض الأحداث وإقصاء بعضها، الاحتكام للعقل ـ لعقلي ـ ما قد يعني أنَّ هذه القصة موجز لقصتين (أو ثلاثة، إن اعتمدنا مادة ساهم بها ألبارو). اللافت أنَّ كلَّ المواد، أيًّا كان مصدرها، لا تتعارض أبدًا فيما بينها.

في الحياة اليومية، تبنَّت ماريا خوسيه دور الابنة بعض الشيء: كانت تقوم بمهام تكلفها بها لوث، وترتب البيت معها، لم تسألها قط عن الغرفة المغلقة، بل وينسيان أنَّها موجودة، كان التوافق بينهما يجعل أي أحدٍ يقول: إنَّهما يعيشان معًا طوال العمر.

وذات مساء راحت لوث للوحدة الصحية بسبب هبوطٍ في الضغط، أو هكذا قالت، فخرجت ماريا خوسيه إلى الشارع، وهاتفت «ورش أدبية» من كابينةٍ بالشارع، وسألت عن ألبارو أبريل.

ـ اسمعني جيدًا؛ لأنِّي لن أكرر ذلك أكثر من مرة. أنا راهبة، عملتُ لعدة سنوات كمساعدة في غرف العمليات بمستشفى برينثيبي بِرجارا، حيث وُلِدت حضرتك. حالما وُلِدتَ، سلموك للتبني إلى امرأة أخرى غير أمك، ورغم أنَّ ذلك يحدث دون ترك أي دليلٍ لا من جانب المتبرعة ولا المتبنيّة، رحتُ أراجع ملفات احتفظتُ بها كلَّ تلك السنوات في علبة أحذية. لم أعد راهبة، لقد تحررت ومنذ سنوات أحاول التواصل مع أشخاصٍ تعرضوا للتبنّي فيما كنتُ هناك. اسمعني: لقد سلَّموا حضرتك لزوج اسمه أبريل، لكنَّ أمك الحقيقية كانت فتاة لا يتجاوز عمرها حينها الخامسة عشرة، أو السادسة عشرة، فتاة

اسمها لوث أكاسو، ليس بوسعي أن أقول أكثر من ذلك، بل وأُعرّض نفسي للخطر بقول ما قلته للتو. اللقب هو أكاسو، من جانب آخر، ليس لقبًا شائعًا. الآن تصرّف بما يمليه عليك ضميرك، فأنا قد تصرّفت بما أملاه ضميري.

كان ألبارو أبريل في مكتبه، وحيدًا، يحضّر محاضرة، يقول: إنَّ سمّاعة التليفون سقطت من يده على المكتب، وإنَّ أول ما خطر له أنَّه ما كان ليتجرأ أبدًا أن يضع في قصة أو رواية سقوط سمّاعة التليفون من يد شخصية لمجرد سماعها خبرًا مذهلًا، لم يبدُ له صدقًا فنيًّا في السرد، ومع ذلك قد حدث له في الواقع، ولم يتمتع بقوةٍ كافية لبرهة طويلة ليقرّب يدًا ويضع السمّاعة في مكانها. كان وصف حالته النفسية، أو حالته الجسدية، ولم يكن ممكنًا تمييز إحداهما عن الأخرى، يشبه كثيرًا وصف حادث جامودي صغير يشبه ما يحدث في الحلم، حين يريد المرء أن يصرخ، لكنَّ لسانه لا يطيعه. رأسه، مع ذلك، كان لا يزال نشيطًا، وصار فجأة، في الثامنة أو العاشرة. في بيته كان ثمَّة ممر يربط، مثل ماسورة، مدخل البيت بالصالون، وفي جدار هذا الممر، بالقرب من باب الصالون، تليفون معلّق، وكان من عادات أمه أن تتحدث واقفةً بقدم في الصالون، والأخرى في الممر، وهي تتأمل صور التليفزيون المفتوح دائمًا، فيما تقبض على السمّاعة الملتصقة بأذنها اليسرى بعد أن تزيل قرطها، وتلعب به في راحة يدها الأخرى الحرة.

وذات يوم سمعها ألبارو، وهي تقول شيئًا لفت انتباهه، واقترب منها ليواصل تَنصته. أمه، كأنَّها سمعت خبرًا شؤمًا، استدارت وتوغلت في عمق الممر بقدر ما يسمح به طول سلك التليفون لتواصل كلامها، حينها قال ألبارو أبريل الصغير: أنا لقيط.

لمّا سألتُه ماذا سمعتَ من أمك، أكّد أنَّه لا يتذكر، لكنه شيءٌ لا يمكن أن تقوله أم أمام ابن بطنها.

ـ لكن ماذا كان، ألححتُ.

ـ قالت: «أنا نادمة؛ لو عاد بي الزمن لنِ أفعلها».

يقول إنَّه في تلك الليلة دخل السرير، وفكّر في أبويه الحقيقيين، في أمه الحقيقية بالذات، وأقسم أن يكرّس حياته للعثور عليها. أولًا، ومع ذلك، كان يحتاج إلى اعتراف أمه المزيفة، وبالتالي، عند عودته من المدرسة ذات يوم، وفيما كان يأكل، قال إنَّ له زميلًا لقيطًا.

ـ لكنه عرف بالمصادفة؛ لأنَّ أبويه كانا يريدان ألا يعرف.

ـ هذه الأشياء لا يصح أن تُدارى، يقول إنَّ أمه المزيفة أجابت هكذا.

افترض ألبارو أبريل أنَّها تكذب، ورغم أنَّه نسي المسألة لسنوات، وعادت الحياة إلى مجراها العادي، إلا أنَّه، في المراهقة، عاد ليغزوه شعورٌ لا يُحتمل باليتم. حينئذٍ بدأ الكتابة، وحين يبقى وحيدًا بالبيت، كان يفتّش خزانات الملابس والأدراج بحثًا عن أي دليلٍ يوثّق شكوكه. وجد شهادات ميلاد، صورًا في علب أحذية، خطاباتٍ مكتوبة بخط اليد داخل مظاريف مفتوحة بحرصٍ أو بيأس، لكن ولا

دليل واحد على أنّه لقيط. مع ذلك، وجد تاريخًا حقيقيًّا: كان أبواه كبيرين في السن مقارنة على الأقل بآباء زملائه. ربما حاولا إنجاب ابن، وحين فقدا الأمل قررا التبنّي. من ناحية أخرى، لم يجد ألبارو شبهًا في إيماءات أعمامه، ولا حتى في صور الأقارب البعيدين. كان في هذه العائلة كغريبٍ، وخلال فترةٍ لاحت له خيالات حسية مع أمه، ما لا يمكن تصوره في ابن بيولوجي، كما أكّد.

حين حكى لي ذلك، شرحت له إنّه ليس غريبًا أن يشعر الأبناء بالانجذاب لأمهاتهنّ، وأنّ ذلك، في النهاية، ليس دليلًا يُقام، لكنه أصرّ على عدّه مرضيًّا.

مع ذلك، قضى بقية النهار أسيرًا لإثارة لا تُحتمل، كانت مكالمة الراهبة المزيفة، العوراء المزيفة، في منتصف المساء، ولم يكن في برنامجه أي لقاءٍ مع لوث أكاسو حتى اليوم التالي، في الثانية عشرة. أعطى محاضرة هذيانية، وحين انتهى عاد إلى بيت أبويه، إلى بيت أبيه بالتحديد؛ لأنّ أمه كانت قد ماتت في عام نشر روايته.

كان الأب، العجوز جدًّا، يعيش مع سيدة قد بدأت تعدُّ له الطعام، ومع الوقت استقرت معه في البيت، دون أن يُعرَف بأي صفة. كانت السيدة عربية، ولم يكن أيٌّ منهما يتحدث لغة الآخر، لكنهما كانا يتفاهمان بدقةٍ غامضة، وبلغةٍ وسيطة كانت تُخلَق بينهما يومًا وراء يوم. كان التفاهم يقتصر في نطاق الأساسيات، لكن ذلك ـ فكّر ألبارو ـ مما يجعل التعايش ممكنًا. بالفعل، كان يخشى لو أنّهما

أتقنا تلك اللغة المخترعة، أو باتت أكثر عمقًا أن يبدأا في تبادل الحديث عن أفكار وجودية تفرّق ما جمعته البساطة.

ـ ربما مشكلة برج بابل لم تكن ظهور لغات مختلفة ـ قد يقول لي ذلك ـ وإنّما تعقيد اللغات الموجودة، وتقديم احتمالية الشك لمستخدميها، واحتمالية التناقض، ونسب الخوف الشخصي للآخر.

منذ ماتت أمه، من جانب آخر، تباعد الأب والابن بالتدريج، وبالكاد كانا يتبادلان الكلمات حين يلتقيان، هكذا شاهد ثلاثتهم التليفزيون، على الأريكة، فيما كانوا يتناولون السلطة والخبز الجاف. لم يذهب ألبارو ليتأكد أنّه ابن لقيط، فلم يكن لديه شك، كان يريد أن يعرف فحسب كم دفعوا من أجله، إذ كان يظن أنَّ الراهبات، عند حل مشكلة الشابات الحوامل، كنَّ يتلقينَ مقابلًا لإدخالهنَّ المستشفى، وفتح غرفة العمليات، بالإضافة لمكافأة كان مشغولًا بمعرفة مقدارها. لم يكن لديه أي مرجع، لكنه حين حاول تخيُّلها، فكّر بشكلٍ عبثي فيما تلقاه نظير روايته، وتساءل إن كان ثمنه أكثر أم أقل. لقد أغلقت الراهبة السابقة الخط سريعًا لدرجةٍ لم تتح له فرصة الرد. لو لم يحدث ذلك لسألها إن كنَّ يكتبنَ إيصالات، أو إن كنَّ يخلّفنَ وراءهنَّ أي أثر لحوالة.

استغرقوا نصف ساعة في الفرجة على التليفزيون، حينها نام الأب والسيدة العربية على الأريكة، وأدرك ألبارو أبريل أنَّ مجرد طرح المسألة عبث، وبالتالي نهض ودخل غرفة أبيه في صمت، وفتح

أيًا من الأدراج، ووجد فيه، في فوضى غريبة، إيصالات النور والماء بجانب أوراق عن المناولة الأولى، وملكية البيت، راجع عدة ملفات ظهرت في طريقه دون أن يعثر على أثرٍ لأي مستند.

خرج من هناك، وتركهما نائمين، وحينها تذكّرني، تذكّر أنّي في رسالة إلكترونية وردًا على رسالة منه كنت قلت له إنّي أعمل على تحقيق حول التبنّي. ركض إلى البيت، وفتح الكمبيوتر، وأرسل لي الرسالة التالية: «أحب لو تعرف حالتي، متى يمكن أن نتكلم؟».

ورغم أنّ الوقت كان متأخرًا بعض الشيء، إلا أنّي كنت أعمل، ورأيت الرسالة عند وصولها. أجبت في الحال على أمل ألا يكون ابتعد عن الكمبيوتر، ويرى ردي. قلت له إننا يمكن أن نتحدث في تلك اللحظة نفسها، وأعطيته رقم تليفوني حتى يهاتفني.

ظللت منتظرًا، مرّت دقائق، ورنّ التليفون، كان هو.

ـ أهلًا، قال.

ـ أهلًا.

سألته، لأبدأ الحوار بأي طريقة، ماذا عن «رسالة إلى أمي» وقال إنّه لم يكتب عبارة واحدة، رغم أنه تلقى عربونًا نقدًا.

ـ ولماذا نقدًا؟ سألته مدهوشًا.

ـ لمّا اقترح عليّ الناشر هذا التكليف، قلت نعم بشرط أن يدفع لي بهذه الطريقة، لكني لا أعرف لماذا اخترت ذلك. الحقيقة أنّي ليس لديّ بطاقة ائتمانية، وراق لي دائمًا أن أمسك المال الحقيقي، لكن أن أطلب منه العربون نقدًا...

ـ لعله فكّر أنّك تريد التهرب من الضرائب.

ـ لماذا؟ سأل بحذر.

ـ لا أعرف، لا أحد يقبض هكذا، إلا إذا أراد التهرب الضريبي.

استغرقنا برهة حول نقطة التهرب الضريبي، وبدا لي أنّ ألبارو يحاول إعطاء صورة الكاتب الغريب والمتألم، كيف أعرف ذلك؟ حين استطعت استعادة الحوار إلى موضوع التبنّي، عاد هو إلى «رسالة إلى أمي»، وكان مشغولًا بها. كان لا يعرف هل يكتبها إلى أمه المتبنية والميتة أم إلى أمه الحقيقية والمجهولة، تساءلت إن كنت تحت تأثير دهشة ما؛ لأنّي كنت أميل إلى التحدث بعلامات ستفهام، لكنني في الحال انتبهت إلى أنّي أرغب في إطالة الحوار:

ـ هل تخاف؟ سألته فجأة.

بعد صمتٍ لثوانٍ، قال:

ـ نعم، لم أعتد العيش بمفردي. بالليل، هذا البيت يحفل بالأشباح.

ـ أي نوعٍ من الأشباح؟

ـ لا أعرف، أشباح.

حينئذٍ حكى لي أننا يوم تعارفنا، لمّا عاد إلى البيت اتفق مع بغيّ ظنها خطأً أمه الميتة، حكى لي مشهد الدُش، والحوار التالي حول الجمرة والجُميرة، وأنا ظننت أنّه يحاول إبهاري، والحقيقة أنّه حقق ذلك، لكنني كنت ما أزال محتاجًا إلى التفرقة بين الحقيقي

والمزيف. حاسة شمّي الصحفية بدأت تشمُّ أنَّ ألبارو ربما لم يكن ابنًا لقيطًا حقيقةً، وإنَّما بالميل.

ـ متى أخبروك أنَّك متبنًّى؟ سألته في النهاية محاولًا الإمساك بزمام الحوار.

ـ في الواقع لا أعرف إن كنت متبنًّى؛ لأنَّ لا أحد أخبرني، وإنَّما كنت أرتاب في ذلك دائمًا.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّي ذات يوم، وكنت في الثامنة أو العاشرة، أشاهد التليفزيون، وأمي تتحدث بالتليفون، ثم قالت عبارة لا تقولها أم أبدًا أمام ابن حقيقي.

ـ ما العبارة؟

ـ لا أتذكر، لكني أعرف أنَّي قلت لنفسي: أنا لقيط.

ألححتُ في أن يتذكر ورغم أنَّه لم يبدُ في البداية مستعدًّا لذلك، إلا أنَّه في النهاية نطق عبارة أمه، وقد كتبتها من قبل: «أنا نادمة، ولو عاد بي الزمن لن أفعلها».

قلت له شيئين: إنَّ هذه العبارة لا تعني شيئًا (رغم أنَّي فقدت ابنتي الحقيقية بسبب عبارة قالتها زوجتي، ولم تكن تعني الكثير)، وإنَّ فانتازيا ابن متبنًّى مسألة شائعة نسبيًّا. أجابني غاضبًا بأنَّه هو أيضًا قد قرأ لفرويد (لم يكن قد قرأه، ولا أنا كذلك، لكن كلينا كان قادرًا على ذكره كغطاء)، ثم خفض نبرته، وأضاف أنَّه حين كان صغيرًا كان يشعر بانجذابٍ حسّي لأمه.

ـ لو أنّك قرأت لفرويد لكنت عرفت أنّ ذلك ليس غريبًا، قلت له بخبث.

وعاد لغضبه، وقال إنّه لم يتصل بي لمناقشة فرويد، وإنّما ليحكي حالته إن كنت لا أزال مهتمًّا به.

ـ أنا مهتم، قلت.

حينئذٍ حكى لي أنّه تلقى مكالمة من راهبة سابقة كانت تعمل مساعدة بغرفة العمليات بالمستشفى حيث وُلِد.

ـ هل يمكن أن تتحقق إن كان في ذاك التوقيت كانت تحدث أشياء شبيهة؟

ـ كانت تحدث، قلت وكان لديّ وثائق حول الموضوع.

ـ وهل يمكن أن تتحقق من حالتي؟

ـ يمكن أن أحاول، لكنه ليس سهلًا بالبيانات المتاحة لديك. الراهبات يحمينَ أنفسهنَّ بصماماتٍ كلما اقتربت منهنَّ. على أي حال، أمهلني عدة أيام.

في أثناء حديثي، شعرت بتقطع أنفاس ألبارو أبريل على الجانب الآخر، وحدست أنّه لم يخبرني حتى الآن بالمعلومة المهمّة، فأعطيته طرف خيط ليتخلى عن حيطته، وبعد برهةٍ لم يستطع المقاومة وقال:

ـ المثير أكثر أنّك لا تستطيع، ولا حتى أن تتخيل، مَن هي أمي بحسب هذه الراهبة.

ـ لا، لا أستطيع.

ـ أتذكر امرأةً حدثتك عنها يوم تعارفنا في بيت الناشر؟

ـ أي امرأة؟ سيدة السيرة؟

ـ أجل.

ـ هل هي؟

ـ هذا ما تقوله الراهبة، تقول إنَّ اسمها ماريا دي لا لوث أكاسو، وهذه السيدة تُسمَّى لوث أكاسو، لا أظنُّ أنَّ هناك نساءً كثيرات بهذا الاسم، أنا في متاهة.

ـ لا أستغرب ذلك، فكلُّ شيءٍ روائي جدًّا.

قلت له ذلك، إنَّ كلَّ شيءٍ يبدو روائيًّا جدًّا، لكني في داخلي فكّرت في شبكة مصادفات يتأسس عليها الواقع، ثم في لحظة ما، ولأسباب نجهلها، تتكشف، مثل الأشجار، وهي تنجلي من وراء ضباب.

ـ ألا تزال هنا؟

ـ أجل.

ـ وهل تعتقد أنَّ هذه المرأة، لوث أكاسو، تعرف أنَّك ابنها؟ هل لمّحت بشيء؟

ـ نعم ولا.

ـ كيف نعم ولا؟

شرح لي حينئذٍ أنَّه في واحد من لقاءاتهما حكت له لوث أكاسو أنَّها حملت حين كانت في الخامسة عشرة، لكنها في اللقاء التالي أنكرت. كذلك كانت متزوجة، ولم تكن متزوجة، وأنَّها أرملة، وليست أرملة في الوقت ذاته.

ـ هي تريد أن تفتنك، قلت وأنا أتظاهر بخبرة لا أتمتع بها.
ـ هل تعتقد أنّها تريد أن تفتنني بطريقة تلميحك إن كانت تعرف أنّي ابنها؟
ـ لا، أعتقد لا، تحتم عليّ أن أعترف.
ـ الوضع الحقيقي إذن أنّي ابنها، ولست ابنها بنفس طريقة أنّها أرملة وليست أرملة، ومتزوجة وليست متزوجة.
ـ لديك رواية هنا، قلت ضاحكًا.
ـ لا أريد رواية، أريد حياة حقيقية.

وفي أثناء حوارنا كنت أحاول تخيُّل بيت ألبارو أبريل. أحيانًا تمثّل لي واسعًا وقديمًا، وأحيانًا صغيرًا وحديثًا. حاولت كذلك تخيُّل مكتبه، مكان الكمبيوتر والتليفون وأشياء تحيط به، وأغلب الظن لم أصب في شيء. كلما تعرّفت إلى أحدٍ أحاول أن أخلق له سياقًا، نظامًا، والشيء نفسه حين أحدث شخصًا تليفونيًّا دون أن أعرف شكله، أحاول أن أستنبط وجهه من صوته، ولا أصيب أبدًا، لكني وفيما ألعب بهذه التخمينات، جاءتني فكرة وقحة شاطحة: ماذا لو كان ألبارو أبريل هو «**لا أحد**»؟ لقد ذكرت من قبل ما في هذه القصة من سيرة ذاتية. امرأة لم أرَها مرة أخرى منذ عشرين أو ثلاثين عامًا، ربما أنجبت مني ولدًا، وسيكون عمره الآن من عمر ألبارو أبريل. لا أريد أن أختلق أملًا زائفًا: إنّها مجرد لعبة بلاغية، كالعادة، ربما تكون الشبكة المؤسس عليها الواقع مجرد بلاغة صرف. لا يحتاج الواقع إلى الاتكاء على أي شبكة: الواقع هو الشبكة نفسها،

لكننا نحتاج نعم إلى التخيُّل، نحتاج إلى الاعتقاد بأنَّ الأشياء تحدث واحدة وراء الأخرى، وأنَّ الأشياء الأولى سبب لما يليها، كما قال ألبارو للوث أكاسو في لقائهما الأول.

حين أكتب تحقيقًا، أكون مدركًا أنِّي عند اختيار المواد النهائية، وسأحتفظ بها من بين كلِّ الوثائق، لا أفعل إلا تزييف الواقع حتى يشتبك بمنطق يفهمه القرّاء، وأفهمه أنا، لكني لا أؤمن دائمًا بما أكتبه، وأحيانًا كثيرة أبقى في هذا الجانب من التحقيق، حائرًا، أمام واقع رغم أنِّي أدخلته في القالب، وأحيانًا بكلِّ مهارة، إلا أنَّه لم يدخُل تمامًا في رأسي، وأحيانًا أخرى يحدث العكس: ثمَّة أكاذيب لا تقاوم أدنى مواجهة مع الواقع، لكنها داخل رأسي تكون شديدة الدقة مثل آلية الساعة. إنَّها أكاذيب، في نهاية المطاف، تستحق أن تكون حقائق، وفكرة أنَّ ألبارو أبريل هو **لا أحد**، ابني، تنتمي إلى هذا النوع من الأكاذيب. لم يكن ابني، بلا شك، لكنه كان ابني في بُعد ما في داخلي، وربما في بُعد ما في داخله كنت أنا أباه.

اتفقنا أن نلتقي في اليوم التالي، في المساء، وأغلقنا الخط، أظنُّ بشيءٍ من الحزن.

في اليوم التالي تغديت في بيت طليقتي مع ابنتي وخطيبها الألماني، لقد جاءا إلى مدريد لإعلان قرب زواجهما، وأنا كأب، كان ينبغي أن أقول كلماتٍ شبه شفافة، لكنني في هذه اللحظة خطر لي تهنئتهما فحسب. بدا لي أنَّ ابنتي، وقد قامت بدور المترجم الفوري، أضافت شيئًا بالألمانية لم أقله بالإسبانية لتحسين صورتي. كان اللقاء صعبًا، وليس لانقطاعات الحديث بسبب الترجمة، وإنَّما بسبب النظرات الهاربة من جانب إلى آخر بالمتضدة بحثًا عن متلقٍ غير متوفر دائمًا. جاءني انطباع بأنَّ الألماني، وكان يراقبني في البداية كعدو، يُحدّق بي بعد تناول الأطباق الأولى كأنَّه يحاول أن يرى نفسه بعد عشرين، أو خمسة وعشرين عامًا. لم نكن في حاجة إلى تكلُّم اللغة نفسها لنعرف أنَّ لكلينا قدمًا في الأرضية نفسها.

ـ لم تحضر نبيذًا، لامتني طليقتي.

ـ لا، قلت.

ـ أنت لا تحضر شيئًا.

ولا حتى أحضرتُ نفسي، كنت على وشك أن أضيف هذه العبارة، لكنني ابتسمت كأنَّي سمعت إطراءً. كانت طليقتي مدرّسة لغة لاتينية في إحدى مدارس مدريد، وابنتي مدرسة فلسفة بإحدى الجامعات الألمانية، وصهري كان فنيًّا ذا حساسية ثقافية، ولم يكن ممكنًا أن تسير الأمور على ما يرام إلا إذا لم أنضم إليها، إلى

الأمور. لست مخلوقًا بروابط عاطفية، رغم أنّي حاولت تعويض هذا النقص بتكوين عائلة، كما يفعل الأعرج، أو الأكتع بتركيب عضو اصطناعي. وعضوي هذا يتكاثر الآن بانضمام قطعة ألمانية ستجعله أكثر صلابة بلا شك، لكني لا أستفيد منها، إذ منذ زمنٍ انهارت عظامي، واضطررتُ إلى العودة إلى نقطة البدء.

ونقطة البدء لم تكن سيئة إن كنت قادرًا على ملء حياتك بالعادات، وأنا أستاذ في العادات، عظيم في الروتين. قد يبدو أنَّ الميل للتكرار يتعارض مع شرط المحرر الصحفي، لكنَّ التحقيق لا يكون جيدًا إلا إذا كان قطيعة مع المعتاد، وينبغي وجود عادات أولًا لكسرها. العمل الفني (وتحقيقاتي بكلِّ تواضع عملٌ فني) تبزغ حين تكسر القاعدة، وهي المادة الخام. تفكّرتُ في القاعدة، وأنا أتأمل سمكًا بالملح أعدته طليقتي. سأهاتف المستشفى مكان ميلاد ألبارو أبريل، وأطلب مقابلة مع الأم الرئيسة. تخيّلتُ دخولي المستشفى، رأيتُ الممرات والسلالم، وربما المصعد. ستخرج الراهبة من وراء طاولة للترحيب بي، وأنا سأجلس وأدخل في الموضوع مباشرةً.

- في يوم كذا من عام كذا وُلِد هنا طفل، وتسلّم لأسرةٍ متبنيّة لقبها أبريل، لكنَّ الأم كانت مراهقة تُدعى لوث أكاسو، وراهبة كانت تعمل حينها مساعدة في غرفة العمليات، والآن تعلمَنَتْ، تحدثت معي. أحتاج إلى أي وثيقة عن تلك الولادة؛ لأنّي أعد تحقيقًا حول التبنّي.

شيءٌ ما دفعني لأرفع نظري، وحين فعلت اصطدمت بنظراتٍ صعقة من طليقتي وابنتي والألماني، ربما أومأت دون أن أنتبه عند الحديث مع الأم الرئيسة، احمرَّ وجهي بعض الشيء فيما تقول ابنتي:

ـ يسألك فالتر في أي تحقيق تعمل الآن.

ـ في تحقيق حول التبنّي.

ترجمت ابنتي، وهي شاحبة قليلًا ما قلته، ولأنّي لاحظت أنّهم ينتظرون إضافة، حكيت لهم أنَّ فكرته خطرت لي، وأنا في إحدى المكتبات الكبرى، بعد أن قال لي قارئ إنّهم يُسمّونني في بيتهم بالعم.

أشارت طليقتي إلى أنَّ كلَّ ذلك يبدو لها مؤذيًا (ارتكبت خطأ الاعتراف بأنّي كنت جُستُ في محيط البيت، حيث يعيش «توأمي» لأراه، أو ربما لأرى نفسي خارج نفسي)، لكنَّ الألماني بدا مهتمًّا بالموضوع وقال، دائمًا من خلال ابنتي، إنَّ هناك مؤلفة فرنسية، حفظت اسمها، مارث روبير، بحسبها، هناك نوعان فحسب من الكُتّاب (شعرت بالفخر لأنّه استخدم كلمة *كاتب* وضمني في التعريف): كُتّاب يكتبون من منظور أنّهم أبناء حرام، وكُتّاب يكتبون من قناعة أنّهم أبناء حلال.

ـ ما من كتابة خارج هذين النوعين: كتابة ابن الحرام، وكتابة ابن الحلال.

الافتراض المطروح في كلماتٍ شحيحة بدا لي مبهرًا، وهكذا عبّرت له. أعتقد أنّي تحمّست له بدرجةٍ لم تعجب طليقتي، ولا

ابنتي، كأنّهما فجأة قد انتبهتا إلى أنّ فالتر وأنا، بالفعل، نضع قدمًا في المكان نفسه، وحينئذٍ لاحظتُ أنّ ابنتي تنظر إلى أمها كأنّها ترى فيها شيئًا من مستقبلها. مدانون نحن بالاصطدام بما نهرب منه.

انسحبت أنا وفالتر من تواطؤ صار بيننا كي نهدّئ المرأتين، لكنّ الوقيعة كانت قد حدثت، والوقت المتبقي من الغداء لم يكن إلا عقابًا. من ناحية أخرى، كنت أرغب في أن أنصرف لأستمتع باكتشاف أنّ هناك نوعين من الأدب فحسب، ما يُكتب من وجهة نظر ابن الحرام، وآخر يكتبه ابن الحلال من منظور اليقين، وربما ثمّة طريقتان للحياة: أن تعيش كابن حرام، أو تعيش كابن حلال. وبدا لي بقوة أنّ أدب ابن الحرام أكثر إثارة؛ لأنّ ابن الحرام ـ الحقيقي أو المتخيل سيان ـ يعارك الواقع (هذان ليسا أبوّي، الأشياء ليست كما حكوها لي)، وهذه أول خطوة لتغييره.

كان ألبارو أبريل، بغض النظر عن أصله الواقعي، كاتبًا ابن حرام؛ إذ يعطي انطباعًا بأنّه جاء إلى العالم عبر ثغرةٍ يأتي منها أبناء الخطّائين أنفسهم، وينحدر بالتالي من مكان تدور فيه حقائق لا يعرفها أبناء الجانب الآخر. «الحديقة»، رغم نقائصها، رواية بنت حرام، تحكي قصة شلة شباب كانوا يجتمعون لشرب البيرة، وتدخين الحشيش في حديقة بالقرب من مدرستهم، كانت الشلة تحميهم من العالم في مقابل ألا تتركهم يكبرون. كانت الرواية تسرد تطور المشاحنات بين الشلة والبطل ـ وهو شابٌّ في الثامنة عشرة يُسمَّى ألبارو مثل المؤلف ـ حين قرر هذا أن يغدو فردًا. ثمّة لحظةٌ لامعة

يتأمل فيها المراهق نفسه والآخرين، ويقول لنفسه: «أنا لست من هنا»، دون أن يعني ذلك معرفته إلى أين ينتمي. في هذه الحديقة القريبة من المدرسة تتعايش دون اختلاط عدة أبعادٍ من الواقع: واقع المتقاعدين، وواقع ربات المنازل مع الأطفال، وواقع المراهقين مثل ألبارو وأصدقائه، وواقع هؤلاء «المراهقين» الآخرين وقد اقتربوا من الثلاثين، ويأتون إلى الحديقة بذريعة تمشية كلابهم، ولا يزالون يعيشون في بيوت آبائهم، رغم أنَّهم دائمًا يتبارزون بمشاريع أعمال فانتازية لا تتحقق. ولحظة نظره لنفسه داخل هذه الشلة هي لحظة قرار بطل الرواية بالهرب، مع أنَّه لا يرى اتجاهًا آخر إلا العدم؛ إذ ليس ابنًا لشيءٍ، ولا لأحدٍ (هل الأنسب قول إنَّه ابن **لا أحد؟**)، لقد قرأت روايته عند صدورها، وبالتالي بدا لي أنَّ فيها تحقيقًا، ولا يخيب أملي. مع مرور الوقت أدركت لماذا.

حين قدّمت طليقتي الحلوى، بدأتُ أتظاهر بالنظر في الساعة، إذ كنت قد أخبرتهم بأنَّ لديّ موعدًا، وبهذه الطريقة تحررت من القهوة، وهربت من هناك دون أي صدامات. وأنا أهمُّ بالانصراف، قبّلتني ابنتي بقرب أذني لتهمس لي بشيء لم أفهمه، رغم أنّي أومأت إيماءة موافقة بهزةٍ بائسة تشبه مَن يتصنعون فهم شيءٍ قيل لهم بلغة أخرى (ثم فكرت أنَّها ربما تحدثت، عبثًا، بالألمانية).

كان ألبارو أبريل ينتظرني في المقهى، جلستُ أمامه وطلبتُ كأسًا، وبعد عدة عتبات حكى لي لقاءاته بـ لوث أكاسو منذ يوم حضورها إلى ورش أدبية بعد أن شدّها إعلان في جريدة. لم أقاطعه

إلا نادرًا، باستثناء حين حكى جلسة الاعتراف بأنّها أنجبت طفلًا في مراهقتها. سألتُه في أي يوم بالتحديد أدلت بهذا الاعتراف، وتصادف مع يوم استضافتي فيّ الإذاعة لأتحدث عن الموضوع. لوث نفسها اعترفت لألبارو أنّها سمعت جزءًا من البرنامج، وألهمها اختراع ابن أكدت لاحقًا أنّها لم تنجبه.

قال لي ألبارو إنّ لقاءهما الأخير كان في ذلك الصباح نفسه، وإنّها، بالتأكيد، لم تُظهر أي معرفة حول مكالمة راهبة سابقة مع ألبارو في اليوم الفائت. جلستْ وفتحتْ المعطف قليلًا، كأنّها تشعر بالحر والبرد في الوقت نفسه، وانتظرتْ برقةٍ حتى يفتح الشاب جهاز الماغنتوفون، ثم سألتْ إن كان ألبارو قد بدأ بالفعل في كتابة سيرتها، وردَّ عليها أن لا، إنّه يفضّل تزويده بالمادة بأكملها قبل قرار ترتيبها.

ـ حتى الآن حكيتِ لي فحسب أحداثًا خيالية، أضاف مراوغًا، لا أقول إنّ الأحداث الخيالية ليست واقعية، لكن ربما ينبغي ربطها بالواقع الواقعي.

ـ الواقع الواقعي؟ سألت هي بتعبيرٍ حائر.

ـ بالمعلومات، إن أردتِ أن نُسمّيه هكذا، نضع المعلومة كأساس، وفوقه نضع الحدث الخيالي.

ـ الحدث الخيالي هو الكريز؟

ـ لم أقصد ذلك.

أومأت لوث أكاسو بإيماءة تعب. في ذلك اليوم كانت شاحبة أكثر من الأيام السابقة، يظهر على رقبتها شبكة من عروق زرقاء

تجري تحت تقويرة البلوزة، وكانت بلوزة بيضاء لها خطوط فوق منطقة الملابس الداخلية، البيضاء كذلك، وأدركتُ، من طريقة وصف ألبارو، أنَّه مغرم بها، رغم أنَّه ربما لم ينتبه إلى ذلك. كان جديرًا أن يتساءل إن كان يحتاج أكثر إلى أم رفيقة، لكنه ربما كان يبحث عن الشيئين، وبعد إيماءة التعب، قالت:

ـ انظر، لقد فكرت أن أتخلى عن الأمر، كان البدء حماقة.

ـ لا تتخلي عنه، ترجاها.

ـ لكن حضرتك تريد معلومات، والمعلومات تثير ضجري، ليس لديّ إلا المكتوب في بطاقة الهوية.

ـ اتفقنا، لا تعطيني معلومات، أعطيني ما يحلو لكِ.

ـ سأقول لك شيئًا واقعيًا، إن كان ذلك ما تحتاج إليه لعمل طبخة سيَرية: لا أستطيع الإنجاب. وإن كنتُ حكيتُ لك الولادة بطريقةٍ واقعية جدًّا، فذلك لأنِّي تخيلتها مئة مرة.

ـ لماذا لا تستطيعين الإنجاب؟

ـ لقد فرّغوني، أنا الآن في إجازة مرضية، في فترة نقاهة من هذه العملية.

لم تكن أول مرة يسمع فيها ألبارو هذا التعبير: لقد فرّغوني، للإشارة إلى تدخل جراحي محدد، ومع أنَّه يبهره دائمًا، إلا أنَّه الآن أثار فيه قشعريرة. يقول إنَّه تخيل لوث أكاسو مفرّغة، مثل صورة من البورسلين الرقيق، وأنَّه فهم الآن هشاشتها.

ـ هل فرغوكِ؟ سأل كأنَّه صدًى.

ـ هو كذلك، هكذا يسمّونها، صحيح؟ رحت إلى الطبيب عشرين مرة، أجروا لي كلَّ نوعٍ من التحاليل والفحوصات، وفي النهاية قالوا لي إنَّهم مضطرون لتفريغي، لا تعرف حضرتك إلى أي مدًى كان حقيقة، لقد تركوني بلا شيء داخلي... بلا شيء.

حدّق فيها ألبارو مبهورًا وحائرًا، قال لنفسه ربما يستطيع، بسيرة يكتبها عنها، تعويض تلك المرأة بشيء داخلي كانوا قد انتزعوه منها.

ـ يمكن أن نبدأ من هنا، من التفريغ.

ـ ابدأ من حيث يروق لك، لقد صار لدينا شيء واقعي، لدينا معلومة، هذا ما كنت تحتاج إليه، صحيح؟ هل تريد أن أعطيك تفاصيل هذه المعلومة؟ اسم الجرّاح؟ عنوانه؟ رقم تليفونه؟

ـ ليس ضروريًّا.

ـ أتريد أن أقول لك بماذا تشعر المرأة حين تصحو، وهي تعرف أن لا شيء بداخلها، إنَّها مفرّغة أكثر من أثاث مُلقًى على السطح؟ أتحتاج من أجل الكتابة إلى معرفة كيف تُرى الأشياء حين نحمل بداخلنا ثقبًا بأحجام كونية؟ هل ثمَّة كلمات للتعبير عن ثقل هذا الثقب، وعمق هذه الثغرة؟

ـ ربما لا، أجابها ألبارو.

ـ إذن لا أعرف معنى أن نواصل كلامنا، سأدفع لك ثمن ما خصصته لي من ساعات، وألقِ بهذه الشرائط في الزبالة.

ـ ربما هناك طريقةٌ ما للتعبير عن ذلك، صحّح ألبارو، امنحيني فرصة للمحاولة.

ـ لا.

ـ تعالي في يوم آخر، يوم واحد فحسب، غدًا، وبما لديّ من مادة سأكتب أفضل ما كُتبته حتى الآن.

نظرتْ إليه لوث أكاسو كامرأة ناضجة تنظر إلى شاب تشعر تجاهه بمزيج من العاطفة والحزن، ثم قالت:

ـ يوم واحد.

ـ اتفقنا.

وحين همّت بالنهوض، طرحت عليه سؤالًا فضوليًا:

ـ قل لي، هل هي بداية جيدة لرواية عبارة «*لديّ بيت في إفريقيا*؟»

ـ نعم، جيدة جدًّا، هكذا تبدأ «مذكرات إفريقيا».

ـ وعبارة *لديّ حوض أسماك في الصالة*؟

ـ ليس الشيء نفسه.

ـ لماذا؟ ليس من أجلي، إنّما لصديقة تريد أن تكتب.

ـ لا أعرف، كلمتا بيت وإفريقيا مثيرتان للخيال، حوض أسماك وصالة، لا.

ـ لا أعرف لماذا لا، قالت ونهضت.

ابتسمتُ من تلك النهاية الغريبة، لكنَّ ألبارو ظلَّ بتكشيرة. كان بوسع تلك المرأة أن تشكّكه فيما هو أدبي، وما هو محض ميل. سألتُه إن كان يعتقد أنَّ تاريخ التدخل الجراحي صحيح.

ـ من المستحيل معرفة متى تكذب ومتى تقول الحقيقة.

ـ مثلما يستحيل التحقق إن كنت ابنًا متبنًى أم بيولوجيًّا؟

ـ ما مصلحتي في خداعك؟ لا أتطلع إلى أن أكون جزءًا من تحقيقاتك.

لم أستطع تجنب نبرة أبوية قبلها هو كأنَّها جزء من اللعبة. قلت له إننا جميعًا تخيلنا ذات مرة فكرة أننا لُقَطاء وطردناها، دون أي إشارة إلى منبعها، وأنَّ هناك نوعين من الأدب، وربما نوعين من الحياة: أدب مَن يشعرون أنَّهم غرباء داخل عائلتهم نفسها، وأدب هؤلاء الآخرين المقتنعين بأنَّهم ينتسبون لعائلاتهم.

ـ ثمَّة أناسٌ كذلك على يقين بأنَّ آباءهم هم آباؤهم، ختمتُ.

ـ يتولاهم الرَّب، أضاف. ثمَّة كذلك كُتَّابٌ يعتقدون أنَّهم قد كتبوا ما نشروه.

ـ ألا تعتقد أنت بذلك؟

ـ أنا لا.

ـ ألست مؤلف *الحديقة*؟

ـ *الحديقة* ابنتي كما أنا ابن أبوَي.

حدَّثني عن تأليف عمل فني، وكان يهتم بالتفاصيل، فيما راقبتُ إيماءاته مثلما راقب لويس رودو، بطل **قصة لا أحد**، إيماءات

لويسا، ابنة أنطونيا، على طاولة الزناة بالمطعم القريب من دار النشر. انتبهتُ حينها أنَّ لديه مثلي شامة صغيرة في شحمة أذنه اليمنى، وأنَّه يثير ارتيابًا لا بلوغ فيه ليقين، لكنه موجود كافتراض فطري. ربما يكون ابني، ربما يكونه، لكني أكرر: ليس في ذلك إلا لعبة بلاغية. رغم أنِّي أكتب تحقيقات، إلا أنِّي أتخيل رواياتٍ طوال الوقت. ماذا قد يحدث في حياتي لو ظهر لي فجأة ابن هو امتداد لشقاوات شبابي؟ الفكرة ترجفني، لا أعرف إن كانت رجفة هلع أم سعادة، لكنها تضعني على مسافة أكثر غرابة مع ابنتي الواقعية، كأنَّ الواقعي يستحيل خياليًا والخيالي يثبت واقعيته. لقد انتبهتُ إلى أنِّي أبٌ أفضل لـ ألبارو أبريل منه لابنتي، رغم أنِّي ربيتُ ابنتي منذ الصغر، ولم أتعرَّف إلى ألبارو إلا قريبًا. تمنيت أن يكون ابني كما تمنيت أن أكتب كتبًا ليست كتبي، حينئذٍ أدركت ما يقصده حول التأليف. ومثلما ثمَّة آباء متبنَّون أكثر شرعية من آباء بيولوجيين، ثمَّة مؤلفون لا يستحقون كتبًا كتبوها. من الصعب جدًّا استحقاق أن تكون أبًا، أو مؤلفًا. بالنسبة للأبناء، لقد قلت إننا جميعًا، وبطريقةٍ ما لقطاء.

سألته عن احتمالية أن تكون مكالمة الراهبة السابقة محض مزحة ثقيلة من شخص يعرفه، وأكد لي أنَّها ليست كذلك، ثم تبادلنا الوداع بضغطة على اليد أطول من المعتادة، ووعدته أن أتقصى عن حالته.

ـ سنتواصل، قلت له.

وكان ذلك كلَّ شيء.

في اللقاء التالي، كما كان شبه متوقع، مسحت لوث أكاسو كلامها، واعترفت بأنّهم لم يفرّغوها، غير أنّها تعيش موسوسة بهذه الاحتمالية.

ـ لقد بقيتُ مفرّغة مرات كثيرة في خيالي، وأن أعيش ذلك مرة واحدة في الواقع لن يكون أسوأ.

كانت ترتدي بلوزة اليوم السابق نفسها، وربما الملابس الداخلية، هكذا ظنَّ ألبارو وهو يشعر بإثارة قمعها على الفور، لم تكن لوث أكاسو سيدة مهملة في نفسها، وبالتالي كان هذا الإهمال علامة على إرهاقٍ أثار تعاطف أبريل. وبعد أن مسحت كلامها، التزما الصمت، واستمعا لصخب الشريط في جوف الماغِنتوفون (التفاصيل الوصفية ليست من عندي، إنّما من أبريل: أنا لن أقول أبدًا «الشريط في جوف الماغِنتوفون»)، حينئذٍ حرّكت عينيها تجاه الجهاز وقالت:

ـ أنت تستهلك الشريط بلا طائل.

وكانت أول مرة ترفع فيها التكليف، وكأنَّ المرأة ـ كما قد يحكي ألبارو ـ قد نهضت من الكرسي، واقتربت منه، وطبطبت عليه.

ـ لا، قال هو. الشريط يسجّل صمتكِ، وهو يساوي ما تساويه كلماتكِ.

ـ كيف ستحكي الصمت في سيرتي؟ بأوراقٍ بيضاء؟

ـ إلى الآن لا أعرف، لكني سأحكيه أيضًا.

ـ سيكون النتاج مسلسلًا تلفزيونيًّا، قالت هي.

ـ سنرى.

تنهدت لوث أكاسو وفكّت المعطف، وضعت ساقًا على ساق وسمع ألبارو احتكاك الجورب البالغ حتى الفخذين، تمنّى أن يلتقط الماغِنتوفون هذا الصوت. كانت لوث تحتذي حذاءً أسود ينتهي بقطعة دانتيل، وكانت قدمها تبدو جسد طفلة نصف كاسية، هذا ما قاله لي مضطربًا بعض الشيء.

ـ اليوم إذن هو اليوم الأخير، أضافتْ. قلتَ إنَّ أربعة أو خمسة لقاءات كافية، هل هي كافية؟

ـ إلى الآن لم نُنهِ اللقاء الأخير، قال وهو ينظر في الساعة.

ـ وماذا تنتظر من اللقاء الأخير؟ كذبة جديدة؟

ـ لا شيء مما قلتِه كان كذبة.

ـ أنت تعرف أنَّه نعم.

ـ قولي لي حقيقةً إذن.

ـ حقيقة تُذهِب الكذبات السابقة؟

ـ إن أحببتِ هذا الاسم...

ـ اتفقنا، سأقول لك حقيقة، هل تتذكر «فينا»، الأرملة الحقيقية؟

ـ نعم.

ـ إذن أنا «فينا»، لمرافقة الرجال الجادين، 24 ساعة. من هذا أعيش، في سني هذه لا أستطيع بيع سحر آخر.

ـ تستطيعين، لكن لا يهم، واصلي كلامكِ، قال ألبارو.

ـ يسمح لك التليفون إلى حدٍّ ما اختيار الزبائن، أقول «إلى حدٍّ ما»؛ لأنَّ كثيرين يخدعون. خجولون عند الاتصال، ووحشيون حين تقابلهم وجهًا لوجه. انظر ـأضافت وهي تخرج تليفونًا محمولًا من جيبهاـ أترى صغر حجم هذا الجهاز؟ إلا أنَّه يحوي بؤسًا بوسعك أن تكتب عنه كتابًا من ألف صفحة. أتريد أن تسمع ما يأتيني من رسائل، رسائل يرسلها لي الرجال؟

ـ نعم. لا... لا أعرف.

فتحت لوث أكاسو سجل الرسائل الصوتية، وأعطت الجهاز لـ ألبارو، فوضعه على أذنه بشكلٍ عبثي ليسمع سلسلة من البذاءات فشَحُب وجهه. حكى لي إنَّه أوشك أن يقسم أنَّ ذلك لم يحدث، لكنه أعاد التليفون لـ لوث دون أن ينطق بكلمة.

ـ ألا تكتب ملحوظاتٍ عمَّا يقدمونه لي من عروض؟

ـ سأتذكر.

ـ إذن كما تعرف: أنا الأرملة البديلة لرجلٍ حكيت لك عن وفاته في لقاءينا الأول والثاني. كان رجلًا طيبًا يستخدم خدماتي يومين في الأسبوع؛ الثلاثاء والخميس. وحين يقدّم ذريعة، كان يبقى للعشاء، ولا حتى يطلب مني أن نتضاجع، أحيانًا نعم، وأنا لم يكن يهمني. كان يروق له أن نمثّل أننا متزوجان، وهكذا كنا نصنع حياة زوجية. بطريقةٍ ما، كان زواجنا

معكوسًا؛ يختبئ الناس من أجل فعل أشياء محرمة، أما نحن فكنا نختبئ لفعل الأشياء المباحة، بل وحتى الحسنة، كنَّا مثل زوجين يعيشان في الشقة المجاورة، مع اختلاف وحيد أنَّ زواجنا سري، نتفرج على التليفزيون أو نلعب الورق، وكان يروق له لعب الورق. كان متزوجًا من سيدة يعرفها منذ المراهقة، كانت خطيبته الأولى والأخيرة. هي حملت منه حين كانت في الخامسة أو السادسة عشرة، لكنهما تنازلا عن الطفل للتبنِّي، إذ لم يكن بوسعهما تحمُّل مسؤوليته، قد يكون الطفل من سنِّك الآن. كلُّ ذلك حكاه لي فيما كنا نصنع حياة المتزوجين الغريبة هذه. كان يحب زوجته جدًّا، وبالتالي لم ينجب منها احترامًا لطفلٍ أول تخليا عنه، لكنه احتاج إلى زوجة أخرى يتحدث معها عن كلِّ ذلك دون أن يجرح نفسه، وهذه الزوجة الأخرى كانت أنا.

ـ ما سبب موته؟ سأل ألبارو.

ـ ما من سبب، مات ميتة طبيعية، أنا عرفت بالمصادفة؛ لأنِّي رأيت نعيه في الجريدة، وهكذا رحت إلى بيته للعزاء، ورأيت جسده حاضرًا. بشكلٍ عابر، نظرت في تفاصيل البيت، وتخيلت كيف سيكون بيتي لو كان نصيبي العيش في الجانب الواقعي للواقع. كان بيتًا عاديًّا، ربما حزينًا بعض الشيء، لم تكن زوجته أفضل مني، وفكَّرت أنِّي ربما جعلته أكثر سعادة منها رغم أنِّي كنت زوجة في أوقات الفراغ، حتى

أقولها بطريقة متسرّعة. وحين هممت بالانصراف، نظرت في كتاب التوقيعات، وفي الصينية الفضية ببطاقات الزيارات، في الواقع كان كتاب حسابات، وأنا كتبت في جزء «مدين» تلك العبارة التي قلتها لك: «الأرملة الحقيقية كانت هنا دون أن يتعرّف إليها أحد، هذه هي الحياة»، ثم تركتُ بطاقة في الصينية الفضية. وخلال الأيام التالية شعرتُ بأني أرملة، ولا أزال أشعر بذلك. ويوما الثلاثاء والخميس أنتظر رنين جرس الباب، دون أن يرنَّ. لبيتي غرفتان، واحدة بجانب الأخرى، مثل رئتين، لقد أغلقت غرفةً كنا ننام فيها، كأنّها غير موجودة. أغلقتها ورميت المفتاح في الزبالة؛ لتظلَّ على حالة آخر يوم قضيناه بداخلها، أو هكذا أظنُّ. أنا أنام في الغرفة المجاورة، وأحيانًا أتخيل أنَّ شبحه لا يزال يأتي في يومي الثلاثاء والخميس إلى الغرفة الخالية، وينتظر أن أدخلها، وأنا كنت سأدخلها لو أنني خرجت من جسدي، وهو شكل يتعرّى به الشبح، ومن أجل قصة حقيقية أحكيها لك، هي ملأى بالأشباح، كما ترى.

ـ لماذا حكيتِ لي هذه القصة في المرة الأولى من وجهة نظر الزوجة؟

ـ لأنّي أحب أن أضع نفسي في مكان الآخرين. هل فكرت في عبارة «كان لديّ حوض سمك في الصالة»؟ هل تبدو لك أفضل من الأمس؟

ـ لا أعرف. أي صديقةٍ تريد الكتابة؟ سأل ألبارو مفترضًا أنَّها هي نفسها.

ـ صديقة تقدّرك جدًّا، هي الآن تغزو جزأها الأيسر؛ لتكتب كتابًا أيسر.

ـ ما معنى كتاب أيسر؟

ـ لا أعرف، كتاب مكتوب بجانب لا يعرف الكتابة.

شعر ألبارو بأنَّ لوث نطقت في التو، وببساطةٍ مذهلة، واحدةً من أفكاره، وحين حاول تخيُّل الحياة دون تلك اللقاءات بدت له غير محتملة.

ـ ألا يمكن أن نرتب ثلاثة أو أربعة لقاءات أخرى؟ توسل إليها.

ـ لا، لا يمكن. بالإضافة، أنت تعرف ما سأقوله في اللقاء التالي.

ـ ماذا ستقولين؟

ـ إن ما حكيته لك لم يكن حقيقة.

ونهضت هي فجأة، كأنَّها تريد إنهاء كلِّ ذلك في أسرع وقت، ولم تتح له الفرصة للتلميح إلى أنَّه عرف، عبر مكالمة تليفونية مجهولة، أنَّها أمه.

ـ حين تنتهي من السيرة، هاتفني، قالت.

ـ بالتأكيد.

وما إن أصبح بمفرده، بحث ألبارو أبريل عن جريدة، وفتح قسم الاتصالات، وسريعًا ما وجد إعلانًا يقول: «فينا، رفقة سرية للرجال الجادين. 24 ساعة»، واتصل، لكنه أغلق الخط في الحال، وهو يفكر أنّه لم يكن مستعدًّا للطلب، وبعد كلِّ شيء، غدا أبريل هو المغرم.

في اليوم التالي كان موعد مقابلتي مع الأم الرئيسة بمستشفى الراهبات، حيث وُلِد ألبارو أبريل. شرحتُ لها أنّي أعد تحقيقًا حول التبنّي، وأنكرت هي أن يكون قد حدث في مستشفاها في أي فترةٍ أي ممارسةٍ للتجارة بالأطفال حديثي الولادة، ولمّا لمّحتُ إلى أنّ راهبة سابقة كانت تعمل كمساعدة في غرف العمليات أكّدت عكس ذلك، نهضتْ ولم ترغب في مواصلة الكلام معي، واقترحت عليّ أن أتوجه للقضاء. تمكّنتُ من التحقق من اسم طبيب نساء وتوليد كان يعمل في المستشفى في تلك الفترة، لم يكن ثمّة احتمال أن آخذ منه شيئًا لو كان حيًّا، لكنه كان قد مات العام الفائت بعد تقاعده بفترةٍ وجيزة، وأرملته أغلقت السماعة حين سمعت كلمة صحفي، ورغم أنّ نقل أطفالٍ من أمهات عازبات إلى متزوجات كان معتادًا خلال فترة، إلا أنّ لا أحد خلّف وراءه أثر جريمة كانت تُعدّ حينها من أعمال الخير. كلُّ الطرق كانت عمياء، ولا حتى شهادة ألبارو نفسه يمكن الوثوق فيها، إذ كانت مبنية على انطباعات، إن لم تكن الرغبة في امتلاك أبوين مختلفين عن أبوين كانا من نصيبه، ربما هناك طرق أخرى للتقصي لا تزال مفتوحة، لكني حتى ذلك الحين كنت أظن أنّ الراهبة السابقة ليست إلا أحد اختراعاته؛ ليثبت أنّ لوث أكاسو أمه.

في الأثناء جاءني اتصالان من الجريدة ليسألوا عن الموعد التقريبي لتسليم تحقيق التبنّي. كنت قد تلقيت نفقات التقصي المتوقعة، لكني تأخرت في التسليم لثلاث مرات. طلبتُ أسبوعين آخرين مع أنَّي فقدت شغفي في كتابته. في بعض الليالي كنتُ أجلس إلى المكتب بكلِّ الوثائق مفرودة أمام عينَي، وأتحقق بتوتر أنَّي بعد ما أهدرته من وقت لجمع حالات حقيقية لأبناءٍ يبحثون عن آبائهم، وآباء يبحثون عن أبنائهم، بات الآن يهمني المتبنّون الزائفون، مثلي تمامًا (*في البيت نُسمّيك العم*)، أو مثل ألبارو أبريل نفسه، لكن كان يشغلني كذلك الأبناء الواقعيون، أو المتخيلون، وقد جاؤوا من خارج الزواج، وفي لحظةٍ ما يظهر هؤلاء الأبناء للزناة؛ ليطالبوهم بتصفية الحسابات، ورغم أنَّي لم أقرأ شيئًا لي بعد نشره، عدت لقراءة قصة ***لا أحد***؛ حكاية لويس رودو المبنية جزئيًا على تجربة شخصية، وحزنت لتسرُّعي في نشرها؛ إذ بدا لي أنَّي لو تركتها تنضج أكثر لصارت رواية قصيرة. دائمًا ما رأيت صلة بين الرواية القصيرة والتحقيق، لكني لم أحظَ قطّ بمادة صالحة، وربما أسأت استخدامها بتسرُّعي.

وذات مساء أمسكت بالتليفون لأتحدث مع رئيس تحرير الجريدة، وأقترح عليه تحقيقًا مزيفًا.

ـ ماذا تقصد بتحقيق مزيف؟ سألني.

ـ كتابة خيالية لها شكل التحقيق. المسألة أنَّي عثرت على حالتين لشخصين يظنان أنَّهما لقيطان، وحالات رجال يظنون

أنَّهم أنجبوا أطفالًا لم ينجبوهم، وأظنُّ سيكون مثيرًا لو عملت في منطقة واقع لم يقع.

كان رئيس التحرير شابًّا، ولم يتجرأ على إبداء رأيه مباشرةً حول اقتراحي، لكنه لخّص دون تأملات بأنَّ جرعة الإبداع في الجريدة مفرطة، وأنَّهم لا يريدون مضاعفتها.

ـ كلُّ الناس تراهن الآن على الواقع، أضاف وحبس في فمي كلمة عن حضور الاجتماع الختامي.

فكرتُ في ترتيب الوثائق الواقعية، وكتابة 15 أو 20 صفحة، وتسليم تحقيق ينتظرون استلامه، ثم أحتفظ لنفسي بباقي الوثائق لكتاب في المستقبل، لكني خشيت إن عملت في المنطقة الواقعية أن أفقد الرغبة في التعمق في الخيال. من ناحية أخرى، ولأنَّه ليس غريبًا أن ينسوا يوم الأربعاء ما طلبوه منك على وجه السرعة يوم الثلاثاء، فتحتُ الكرسي للخلف ونمتُ.

صحوتُ مفزوعًا بعد عشر دقائق، حلمتُ أنَّ ألبارو أبريل ابني، وعرفت حينها أنِّي لن أتجاهل فكرة أنِّي أنجبت ربما ابنًا مجهولًا (هكذا سمَّيته داخل رأسي) حتى أتحقق من الأمر، وبالتالي خصصت يومين لمعرفة مكان عشيقة شبابي، وقد فسخت معها بطريقة لويس رودو نفسها، في قصة ***لا أحد***. كانت تعيش في برشلونة، ولم يكن سهلًا تبرير مكالمة بعد 25 سنة، قلت لها إنِّي تذكرتها فجأة.

ـ فجأة خطرتِ ببالي.

ـ نعم، أجابت ساخرة.

ـ كيف حالِك؟ أضفت وأنا أحاول تخيُّل آثار الزمن على وجهها، وتساءلت إن كانت نظرتها لا تزال تغيم حين تمر فكرة قاتمة على ذهنها.

ـ لا أزال حية، إن كنت تقصد ذلك.

وأدركتُ أنَّها قرأت ***لا أحد*** في الجريدة، وعاتبت نفسي؛ لأنِّي تسرّعت في نشرها.

ـ لا أقصد ذلك.

ـ أعرف أخبارك من الجريدة، وشاهدتك ذات يوم في التليفزيون، وبدا لي أنَّك غدوت سمينًا.

ـ كاميرا التليفزيون تزيد الوزن، دافعت عن نفسي.

ـ لكني في يوم آخر استمعت إليك في الراديو، وبدا لي أنَّك ما زلت نحيفًا.

ـ الراديو يقلل الوزن، خطر لي أن أقول ذلك استكمالًا لعبارتي السابقة.

ـ كنت تتحدث عن الأبناء المتبنين، إنَّه موضوع موضة.

ـ لكني لا أعمل عليه لأنَّه موضة، لقد عرفت فجأة أنِّي لقيط ـ كذبتُ ـ وبدأت أبحث في الموضوع.

ـ وكيف عرفت أنَّك لقيط؟

ـ كنت أوقِّع كتابًا في واحدة من المكتبات الكبرى، وقال لي قارئ إنَّهم في بيته يسمّونني العم؛ لأنَّ أباهم مطابقٌ لي. وعند وداعنا، أعطاني رقم تليفون إذ ربما أحب ذات مرة التعرُّف

إلى توأمي، وفي يوم اتصلت ودعوني لتناول القهوة، وبالفعل كنت أنا وذاك الرجُل شبيهَين، ثم اكتشفت أنَّ لدينا عادات مشتركة أو مكمّلة، وقررنا أن نجري تحاليل، وقالوا لنا إننا بالفعل توأم.

ـ هل أجريتما تحاليل جينية؟ سألتْ باستغراب، كأنَّه شيء شديد الندرة، فخشيت أن أكون قد قلتُ شيئًا لا يُصدق، لكني أكدت مرة أخرى، وأضفتُ فورًا:

ـ لا بدَ أنَّهم فصلوا بيننا، وسلّمونا إلى عائلتين مختلفتين حالما وُلِدنا، لقد مات أبواه المُتبَنيان، وكذلك أبواي، ولم يعد بوسعهم إعطاؤنا معلومات نحتاج إليها، لكننا لم نرفض البحث عن أبوينا الحقيقيين، إن كانا حيين. لمّا بدأت أعمل على الموضوع، تحققت أنَّ أناسًا كثيرين يعيشون في موقفنا فبدأت أجمع مادة لعمل تحقيق.

ـ نعم ـوهذه الـ نعم كانت ملمحًا من شخصيتها المستفزة بعض الشيء؛ لأنَّه ما من طريقةٍ لمعرفة إن كان قبولًا حقيقيًا أم تهكمًا ـ تبدو رواية.

ـ الحياة حافلة بالروايات. وأنتِ؟ هل لديكِ أولاد؟

ـ بيولوجيون أم متبنّون؟

ـ سيان، هل أنجبتِ؟

ـ اطمئن، لا.

كانت تعرف، عندما انفصلنا، أنّي ظللت مشغولًا بأن تكون حاملًا. والآن تنفي بطريقة إلقاء الشك في الهواء، وأدركت أنّ اتصالي كان خطأً، وبالتالي ودّعتها سريعًا بعد أن اتفقنا على لقاء عندما أسافر إلى برشلونة، أو تأتي هي إلى مدريد.

عندما أنهيتُ المكالمة، انتبهتُ إلى أني كنت متأثرًا بقصة ألّفتها لها عن أخي التوأم. كانت كذبة، لكن في جزءٍ مني كانت حقيقة أيضًا، مثل قصص لوث أكاسو، وفهمت حينها أنّي أريد أن أتعرّف إليها، غير أنّي لا أعرف كيف أخبر ألبارو أبريل بذلك دون أن أبدو له دخيلًا على حياته. في النهاية، بررتُ لنفسي، هي تنشر إعلانات في الجريدة، ولا أحتاج إلى استئذان أحد لأهاتف أحدًا متاحًا للجميع. من جانب آخر، لديّ خبرة ما في هذا العمل. منذ سنوات، عندما بدأت تظهر إعلانات الاتصالات في الصحافة، عملتُ على تحقيق حول هذا الشكل من أشكال البغاء، وحينها اتصلتُ بعشرات السيدات، وقدّمتُ نفسي كعميلٍ مزيف، وحكيت حيواتهنّ على مدار سلسلة أسبوعية حققت نجاحًا كبيرًا، ثم تعلقتُ خلال فترة طويلة (خلال سنوات، لأقولها بوضوح) بهذا الشكل من العلاقة إذ يقدّم الجنس من دون أي تعقيداتٍ عاطفية، وكون لوث أكاسو تستخدم هذا القسم من الجريدة، وقد ارتبطت به طويلًا، يبدو لي مظهرًا آخر من مظاهر التوافق بيننا ووجود الشبكة السرية.

سحبت الجريدة وفتحتها، وضعت سبّابتي على خط الإعلان بالكلمات مثل طفلٍ يضع سبّابته على ذيل حشرة حتى لا تهرب، وقرأتُ الإعلان مجدّدًا، وأنا أحرّك لساني في فمي: «فينا، للرفقة السرية للرجال الجادين. 24 ساعة». قرأته في ذاك اليوم، واليوم التالي، وما تلاه دون أن أتجرأ على الاتصال. اليوم كان في أعلى الصفحة اليمنى، بالأمس كان أسفل الصفحة اليسرى، كان يعطي انطباعًا بأنّه يتحرك في الجريدة مثل حشرةٍ على حائط، لكني كنت أميّزه سريعًا، مثل عالِم حشرات يميّز خنفساء من بين ألف. ظللت أتابع هذا الإعلان عشرة أو خمسة عشر يومًا، على أمل أن يختفي، أو أمل أن أتجرأ على الاتصال لأعرف صوت السيدة الجريئة، لكن الوقت كان يمرُّ دون أن يحدث أي شيء من الاختيارين.

كان الرقم المدوّن في الإعلان لتليفون محمول، وحول الإعلان كان ثمّة عبارات لافتة وملونة، مثل عيّنات من الخنافس الاستوائية المشرّحة. عبارات، مثل: «خُلاسيات شقيات»، «عذراوات ساخنات»، «تلميذات مدللات»، «حمراوات الشعر مثيرات»، «صغيرات غندورات»، «توائم متطابقات»، «جيشيات»، «مازوخيات»، «ربات منزل»، «آسيويات»، «حنونات»، «دميات من البورسلين»، وفي وسط كلِّ هذه الألوان تبدو السيدة الجريئة مثل ندرة حَشَرية. في زمنٍ آخر كنتُ أهوى جمع الحشرات المُشرّحة (كان يروق لي بالذات حشرات تحمل تابوتًا على ظهرها)، والإعلانات بالكلمات كانت تذكّرني الآن بهواية المراهقة.

في الأثناء لفت انتباهي إعلانٌ آخر يقع في الجزء السفلي من الصفحة، ويقول: «في ورش أدبية نكتب سيرتك بمعلومات تمدنا بها، ونطبع عدد النسخ كما تريد. اهدِ أولادك أو أحفادك أفضل هدية، احكِ لنا حياتك. جودة أدبية مضمونة». الإعلان المكتوب داخل بوكس صغير كان أيضًا غرابة دعائية أو بيولوجية، وربما التفتت له لوث أكاسو، وهي تفكر في بدء مسيرتها كسيدة جريئة. تخيلتها وهي تمسك التليفون، وتهاتف «ورش أدبية» بدهشة مَن ملأ الساعات القادمة، وربما الأيام القادمة في حياتها.

عرفت لاحقًا أني فيما كنت مترددًا في الاتصال بـ لوث أكاسو (أو فينا، بحسب الإعلان)، كان ألبارو أبريل قد قرر بالفعل الاتصال بها. تردد، بالتأكيد، لكن ليس بحجم ترددي. فعل ذلك بعد لقائهما بثلاثة، أو أربعة أيام، وفي ساعة موعدهما المعتاد في ورش أدبية. اتصل وأغلق الخط مرتين، نعم، لكنه في الثالثة، حين ردت لوث أكاسو (أو فينا) لم يكن بوسعه إلا نطق كلمة واحدة:

ـ ماما.

صمتت فينا لعدة ثوانٍ، ربما ترددت إن كانت ستواصل اللعبة أم لا، ثم، كأنها لم تسمع جيدًا، قالت:

ـ نعم؟

ـ إنَّه أنا، يا ماما، ردَّ ألبارو وانفجرت فينا في البكاء على الجانب الآخر.

ـ أفتقدك يا ابني، ردت في النهاية بنهنهة.

حين حكى لي ألبارو المكالمة الأولى هذه، دُهشت لسهولة توصّلهما إلى اتفاقٍ ضمني بموجبه يتصرف كلٌّ منهما بما ينتظره الآخر منه. لوث، أو فينا، لا أعرف كيف أشير إليها دون أن أخون سرد الأحداث، إذ كانتا امرأتين، نعم، لكنهما السيدة نفسها، كانت تحتاج إلى ابن، وألبارو ينقصه أم، وبالتالي تلاقت حاجتهما بدقة.

بالتأكيد لم يشيرا إلى لقاءاتهما في مكتب ورش أدبية، وإنّما بدأا عبر التليفون علاقةً جديدة، كان ألبارو يهاتفها في الثانية عشرة، وخلال ساعة يتبادلان حيوات خيالية تقريبًا يسودها الأمل في أن تأتي لحظة يجمعهما القدر، لم يقعا كذلك في إغواء الاتفاق على موعد للقاء، كان الاتفاق الضمني يفرض علاقة تليفونية فحسب. في الحقيقة، كأنَّ التواصلَ عبر هذا الجهاز تواصلٌ مع بُعدٍ يحقق فيه كلٌ منهما أحلام الأمومة والبنوة المنكرة عليهما في الواقع. في المكالمة الأولى هذه، تحدّث ألبارو مع لوث عن «عائلته المتبنّية»، وحتى لا يشغلها كثيرًا، قال إنَّ أمه كانت طيبة، رغم أنّها باردة إلى حدٍ ما، ومتدينة إلى حد التطرف، لقد أعطت كلَّ شيءٍ إلا العاطفة.

- لقد ماتت، أضاف.

- وكم كان سنّك؟

- عشرون، ثم عشت مع أبي بالتبني وقتًا قصيرًا؛ لأنّي في ذاك العام نفسه نشرت رواية حققت نجاحًا فغادرتُ البيت.

- وهل أنت مستقر يا ابني؟

- نعم، أعيش في شقة بالسطح لها شرفة كبيرة ونباتات.

كان يكذب، لم يكن لديه نباتات، لكنه ظنَّ أنَّ أمه يسرّها سماع ذلك.

- كيف عرفتَ أنك لقيط؟

- بالمصادفة، ذات يوم، وكنت في التاسعة أو العاشرة، سمعت أمي تقول لأحدٍ في التليفون «أنا نادمة، لو عاد بي الزمن لن

أفعلها»، وحين انتبهتُ إلى أنّي أنظر إليها استدارت خجلى، وواصلت الحديث بصوتٍ خفيض، لم يقولا لي ذلك صراحةً، لكنني كنت أعرفه منذ الأزل.

ـ ما شكل أبيك المتبنّي؟

ـ عجوز جدًّا، ومنعزل في عالمه. دومًا كنت غير مرئي أمامه، ربما تبنّاني بضغوطٍ من زوجته أكثر منها رغبة منه. الآن يعيش مع سيدة عربية، وأظنُّ أنّه سيان بالنسبة له أن أزوره أم لا.

ـ دومًا هناك طرف لا يريد، قالت لوث أكاسو.

ـ لا يريد ماذا؟

ـ لا تشغل بالك، لا يهم ما تفترضه، يا ابني، هناك دومًا شخصٌ لا يريد ذلك؛ لأنّه يريد شيئًا آخر.

كان ألبارو أبريل يموت ليسأل عن أبيه، والسؤال يحرق لسانه، مَن هو أبي، لكنه لم يتجرأ على طرحه في تلك المرة الأولى، كان موهوبًا في السرد، ويعرف أنَّ المواقف يجب أن تنضج، وأنّه ما من شيءٍ أسوأ في قصة (على عكس التحقيقات) من التسرُّع.

وفيما كان ألبارو، من دون أن أعرف في تلك اللحظة، شغوفًا بتلك العلاقة البنوية مع لوث أكاسو، قررت أنا ذات يومٍ أن أتصل بـ فينا، رفقة سرية للرجال الجادين. 24 ساعة.

ـ أنا رجلٌ جاد.

ـ ، قلت بنبرة مزحة لطيفة حين ردت في النهاية، بعد أن ردَّ البريد الصوتي ألف مرة.

ـ كيف أنَّك جاد؟ سألت هي بعد لحظات من التردد.

ـ أقدّر السرية فوق أي شيء.

ـ المسألة أنّي أقدّم خدمات لحالاتٍ خاصة جدًّا، من أجل الرفقة والتنزه في المدينة، إن كنتَ غريبًا.

ـ هذا ما أحتاج إليه، قلتُ لها.

ـ وماذا عن المضاجعة؟

ـ حين أبحث عن رفقة لا أبحث عن مضاجعة. هما شيئان مختلفان، هل يمكن أن نلتقي؟ هذه الليلة أحتاج إلى رفقة في العشاء.

ـ هذه الليلة، نعم يمكنني، ردت هي بعد أن راجعت، أو تظاهرت بمراجعة أجندتها.

اتفقنا أن نلتقي في أحد مطاعم شارع برينشيبي دي بِرجارا، وعلى ما يبدو لم يكن بعيدًا عن بيتها.

وصلتُ أنا قبلها، وحين رأيتها تقترب من الطاولة، بعد أن أشار لها النادل إلى مكاني، تساءلت لماذا لم يخبرني ألبارو قط أنَّها امرأة مريضة. كان مستحيلًا ألا يُلاحظ ذلك، ليس بسبب نحافتها، وإنَّما لأنَّها غدت شفافة، كانت مزينة جدًّا وبشعرٍ أشقر، وهي معلومة لم يخبرني بها كذلك، رغم أنَّها قد تكون صابغة، فأنا لا أفرّق بين شيءٍ وآخر. حين خلعتْ المعطف، لاحظتُ أنَّها ترتدي تحته جونلة من الجلد حدّثني عنها ألبارو، وبلوفر برقبة مستديرة، رقيقًا جدًّا، وملتصقًا بجسدها بطريقةٍ تجعل صدرها، وليس كبيرًا جدًّا، يشغل

بُعدًا موترًا في محيطٍ هش. والمرض، أيًا كان نوعه، جعلها أكثر جاذبية، كانت بعينين خضراوين وأنف دقيق جدًا، بفك علوي ناتئ قليلًا عن سطح الوجه؛ ليمنح لهذه الشفة إيماءة عدم تصديق دائمة. ربما لم تكن تعرف ذلك، لكنها امرأة تنظر إليك بتعبير استفهام، بالتالي، إن لم تكن حذرًا، قد تقع في غواية تقديم إجاباتٍ لها.

كانت مرعوبة، كأنَّها بعد أن قررت الحضور إلى الموعد شعرت بخوفٍ من العواقب التابعة له. وأنا خفتُ من احتمالية أن يفسد اللقاء، وألّا يتاح موعد آخر، وبالتالي قلت لها قبل الطبق الثاني إنِّي صحفي مشهور جدًا (وهي أكّدت، بالفعل تعرف اسمي)، وإنِّي أجمع مادة حول النساء اللاتي يستخدمنَ قسم اتصالات الجريدة من أجل البغاء. احمرَّ وجهها عند سماع هذه الكلمة، وكما أقول إنَّها كانت شفافة، بدا أنَّ وجهها يمتلئ بالنبيذ، قلت لها إنَّها احمرَّت فابتسمت، وأكّدت أنَّ الحياء من ضمن السعر.

ـ أغلب الرجال يحبون أن نبدو سيداتٍ خامات.

وهي كانت تبدو امرأة خامًا، وربما كانت بلا خبرة بالفعل، وتساءلتُ أي غوايةٍ دفعتها لتنشر إعلانًا في الجريدة، إلا إذا كان منطق قصة فانتازية، ربما بدأت ولا تتمكن من السيطرة عليها، ثم اعترضتْ على الظهور في التحقيق، وتحتم أن أؤكد لها أنِّي لن أستخدم صورها، وأنِّي سأستخدم اسمًا مستعارًا. قالت:

ـ إذن سأرافقك كما تريد وسيحمرُّ وجهي، لكنَّ الثمن غالٍ.

قبلتُ السعر، وفكّرتُ أنّي في لحظةٍ ما سأمرر الفاتورة للجريدة، ثم حكت لي أنّها تعمل في البغاء منذ كانت في الثامنة عشرة، قالت إنّ الحكاية بدأت كلعبة، بعدها جاءت لحظة لم تكن تعرف عمل أي شيءٍ آخر، لم تكن من مدريد، وكان أبواها سيموتان من الخزي إن مارست البغاء في مدينة صغيرة جاءت منها، ولم تذكر اسمها.

ـ يعتقد أبواي أنّي موظفة وأنّي أعمل في وزارة المالية، وأحيانًا يسألاني عن الضرائب، وأضطر للبحث عن شخص لأستشيره، ولحسن الطالع ففي هذه المهنة، لأنّها مهنة مثل أيّ مهنةٍ أخرى، تتعرّف إلى زبائن من كلّ نوع، ودائمًا ما تجد مَن يساعدك. ستندهش لو قلتُ لك مَن مرّ بسريري، لكننا نحتفظ بالسر المهني مثل المحامي، ومثل الطبيب.

بدا لي أنّها تكوّن خطابًا خاصًا بها أكثر منه موجهًا لي فتركتها تكمل حديثها.

ـ ألن تسجّل ملحوظاتٍ في هذا الدفتر الطويل؟ سألتْ.

ـ لا، لأنّ الكتابة تقطع الحوار. ربما لاحقًا، في لقاءاتٍ أخرى.

ـ ربما لا أثير اهتمامك، وتبحث عن أخريات.

ـ ما زلتُ لا أعرف ما أريد فعله. حتى اللحظة يروق لي الحديث مع عدة سيدات، والآن أصابك الدور.

ـ أنا أحسد مَن يعرف الكتابة؛ لأنّي، لو كنت أعرف، سأكتب حياتي وأغدو كاتبة بِست سيلر.

ـ كلُّ الناس يظنون أنّ حياتهم بِست سيلر.

ـ لكنَّ بعضهم يظنُّ عن حق.

ـ هل «فينا» اسمكِ الحقيقي؟

ـ لا، لكن اسمي الحقيقي لا أقوله لأحد، ولا حتى لك.

ـ ولماذا سميتِ نفسكِ بـ فينا؟

ـ لأنِّي نحيفة جدًّا كما ترى، لكنَّ ثمَّة سببًا آخر، أنِّي تحصّلت على تعليم غير معتاد مع العاملات في البغاء.

احمرَّ وجهها من جديد، ولفتُّها لذلك.

ـ لقد قلت لك إنَّ الحياء متضمن في السعر. في بيتي، عندما يريدون أن يصفوا امرأة بأنَّها نحيفة، يقولون إنَّها «فينا»[1] جدًّا، فلانة «فينا» جدًّا؛ لذلك اخترتُ اسم فينا، لكنَّ أغلب الزبائن لا ينتبهون.

ـ هل تقابلينَ زبائن وقحين؟

ـ تعلَّمتُ أن أميِّزهم من التليفون، ومَن أجدهم وقحين لا أقدِّم لهم خدماتي، لست في حاجة إليهم. أتريد أن تسمع ما يتركونه من رسائل، رسائلكم أيُّها الرجال؟

ما إن قالت ذلك حتى أخرجتُ الهاتف من الحقيبة، فتحته وأدخلت رقم البريد الصوتي، كما فعلت مع ألبارو. استمعتُ لثلاثة أو أربعة اقتراحات وقحة وأعدته إليها، لقد أدركتُ في هذه اللحظة أنَّها منذ سنوات ربما تلعب بتلقي الرسائل على تليفونها المحمول،

---

(1) Fina تعني بالإسبانية رقيقة (م).

تلعب بكونها بغيّ، ودوّنتُ عقليًا هذه الملحوظة لأتحرّى إن كان رقم تليفونها يظهر كذلك في إعلانات أخرى أفظع من «رفقة سرية لرجال جادين. 24 ساعة».

ـ مع ذلك قابلتُ زبائن مؤدبين جدًّا، شخصياتٍ سياسية وفنانين، مثلك.

ـ أنا لستُ فنانًا.

ـ ربما لأنّك لا تريد، لأنّي لو أجيد الكتابة لصرتُ فنانة. هل تعرف كيف تبدأ رواية عنوانها *مذكرات من إفريقيا*؟

ـ «كان لديّ بيت في إفريقيا»، قلت لها.

ـ هل هو استهلالٌ جيد؟

ـ جيد، نعم.

ـ ولماذا لا يكون جيدًا بدء كتاب بعبارة «كان لديّ حوض سمك في الصالة»؟

ـ لا أعرف، قولي لي أنتِ.

ـ لأنّ «بيت» و«إفريقيا» كلمتان موحيتان، أمّا «حوض سمك» و«صالة» ليستا كذلك.

شعرت بقليل من الخجل من وضع متميّز شغلته دون أن تنتبه هي، لكني أسكتُّ ضميري بتكرار أنّي لا أحتاج إلى أن يعطيني أحد تليفونها، إذ إنّه متاحٌ في الجريدة لأي أحد.

ـ هل تحبينَ القراءة؟ سألتها.

ـ قرأت لـ إيزابيل الليندي. لو كنت أكتب، لاخترتُ أسلوبها. لا تضحك، ثمَّة كُتّاب آخرون في سيرتي.

ـ أنا لستُ كاتبًا.

ـ أنت لست فنانًا، أنت لست كاتبًا، هل يمكن أن تخبرني ماذا أنت؟

ـ قلتُ لك: أنا صحفي.

ـ لكنك تجيد الكتابة، صح؟

ـ نعم، لكن حول أشياء واقعية فحسب.

ـ يا لهوس الناس كلهم بالواقع! الأشياء اللاواقعية أيضًا موجودة.

ـ ربما أنتِ محقة. صديق لي يقول إنَّه لو كان قد أنجب، لصار ابنه الآن في الخامسة والعشرين.

ـ هذا ما أقصده، وفي السيَر أظنُّ أنَّ الجميع يكذب، أليس كذلك؟

ـ ممكن.

انتبهتُ إلى أنَّ فينا (أو لوث أكاسو) كانت طوّرت مهارة ممتازة لتتصنع أنَّها تأكل دون أن تأكل. بالكاد تذوقتْ ما طلبَته، لكنَّ الطعام في النهاية كان موزعًا في الطبق بطريقةٍ تعطي انطباعًا بأنَّها أكلت نصفه. دار في ذهني ألف سؤال، لكن بدا لي أنَّ من الأفضل ألا أضغط عليها حتى تقبل لقاءاتٍ أخرى. حين نهضنا، وضعتُ يدًا خلف ظهري، كثيرًا ما أفعل ذلك، في إيماءة مميزة لمَن يعانون من القطنية.

ـ هل عندَك قطنية؟

ـ نعم، في أيام تزيد عن أيام أخرى. اليوم حالتي سيئة.

ـ إذن يجب أن أعرّفك علىً صديقة كاتبة تريد أن تكتب كتابًا عن القطنية.

ـ حين تريدينَ، لكني لا أعرف أهميته.

ـ هي ستحكي لك. في الواقع، هي ليست متأكدة إن كانت تريد الكتابة عن القطنية أم عن L› um bago. أعطني قلمًا لأكتبه لك.

أخرجتُ قلمًا وكتبتْ هي L› um bago على راحة يدها فيما نتجه إلى الباب.

ـ هل تعرف ما معنى L› um bago بالرومانية؟

ـ لا، لا أعرف.

ـ معناها el ojo vago (العين الكسولة)؛ لذلك لا تعرف إن كانت ستكتب عن القطنية أم عن العين.

ضحكتُ فنظرتْ لي محرجة، ثم أخذتْ تاكسي من باب المطعم وتركتني وحيدًا.

في اليوم التالي راجعتُ قسم الاتصال بالجريدة بحثًا عن رقم تليفون فينا، وتحققت من أنَّه في عدة إعلانات ـ كما تصورت ـ بأسماءٍ أخرى وتحت أساطير أكثر إثارة من «رفقة سرية من أجل رجال سريين». هكذا، على سبيل المثال، يظهر في إعلان يقول: «ضاجعني ثم احكِ ذلك لأمك في التليفون». وفي إعلان آخر تعد مَن يتجرأ ويهاتفها برحلة: «من الفم إلى أسفل، أو من السماء إلى جحيم الذكر». حينئذٍ، رحت إلى الجريدة وتوجهت إلى قسم الأرشيف، بحثت عن أعدادٍ قديمة، وتأكدت من أنَّ لوث أكاسو، نعم اسمها لوث أكاسو، كانت تلعب دور بغيّ.

أول ما خطر لي (وهو تشوه مهني) أنَّ في فكرة استخدام تليفون محمول سري للعب دور بغيّ، ثمَّة تحقيق مثير، وبالتالي ففي هذا المساء نفسه اشتريت تليفونًا محمولًا رخيصًا لأكرّر تجربة لوث (أو فينا، أو إيبا، أو تاتيانا، إذ بكلِّ هذه الأسماء ظهرت في قسم الاتصال) لأرى ماذا سيحدث. حالما نشّطتُ الجهاز اتصلتُ بوكالة، وطلبت وضع الإعلان التالي في قسم الاتصالات خلال عدة أيام: «رجل متزوج يقبل لقاءاتٍ عشوائية بنساءٍ محافظات»، وأعطيتهم رقم تليفون اشتريته من أجل هذا الغرض، ثم تركته في درج، مغلقًا.

خلال الأيام التالية، حين فتحت التليفون، وجدتُ في البريد الصوتي مجموعة من الوقاحات أفزعتني بشكلٍ عام، رغم أنَّها

أثارتني كذلك. وجدت رسائل من نساءٍ خجولات ووحيدات يبحثنَ عن مخرجٍ مستحيل للإشباع، لكنَّ المعتاد في الاقتراحات كان المباشرة والوقاحة سواءً من جانب الرجال أو النساء بأصوات مرعبة عند استماعها. لفتتني رسالة كانت أرسلتها امرأة بصوتٍ شديد العذوبة والجاذبية. كانت تقول إذا كنتَ تبحث عن جنس لا يمكنني مساعدتك، لكن لا تتردد في الاتصال بي إذا كنت تحتاج إلى سببٍ للحياة، وتركتْ رقم تليفون أيضًا. اتصلت من هاتفي، وفي الحال ظهر الصوت العذب جدًّا من الجانب الآخر.

ـ أنا الرجل المتزوج، وأبحث عن نساءٍ محافظات، قلت.

ـ وما اسمك؟

ـ إنريكي ـ كذبتُ عليها ـ وأنتِ؟

ـ روسا.

ـ أهلًا يا روسا.

ـ أهلًا يا إنريكي. هل تبحث عن سببٍ للحياة؟

ـ أبحث عن سببين، لكني سأرضى بسببٍ واحد.

ـ أنا مريضة، هل تعرف؟

ـ بماذا؟

ـ لا يهم. أنا مريضة، في السرير، بمخدة مطوية تحت رأسي. في يدي اليمنى ريموت التليفزيون، وفي اليسرى التليفون المحمول، إنَّهما الشيئان الوحيدان للإبحار في الواقع. أنت لديك أشياء أخرى، صح؟

ـ إلامَ تشيرينَ؟

ـ ألديك ساقان؟

ـ نعم.

ـ إذن لديك سيبان للحياة.

كنتُ واقفًا بجانب المكتب، مأخوذًا بعض الشيء. أظنُّ أنّي لم أسمع قط صوتًا بهذا الجمال، ربما كنت أذوب فيه، لم أرغب إلا في الانصهار في هذا الصوت كما ينصهر وسواس في حلم، غير أنّه في الوقت نفسه كان صوتًا محذرًا.

ـ كم سنك يا روسا؟

ـ اثنتا عشرة سنة، وأنت يا إنريكي؟

أنهيتُ المكالمة مرتعدًا، وظللت ألهث لثوانٍ، كأنّي بذلت مجهودًا جسديًا فوق احتمالي. أدركت أنَّ التليفونات المحمولة تنسج حول العالم شبكة من القلق تتجاوز التليفون الأرضي. كنا نثقب طبقة الأوزون، لكننا كنا ننشئ في مكانها طبقاتٍ أخرى، كثيفة مثل البطاطين، من كلمات تعبُر الغلاف الجوي بحثًا عن وجهات مستحيلة. فتحتُ النافذة رغم البرد ليدخل الهواء، وحين استعدتُ نفسي (هذا مجرد كلام: لم أستعد نفسي قطّ من تلك المكالمة)، عدتُ إلى المكتب. حاولت استيعاب لوث أكاسو، تخيلتها تستمع لرسائل تليفونها المحمول وترد تلقائيًا، وبشكلٍ شخصي، على بعض المكالمات. يتيح التليفون المحمول ألعابًا متعددة لا يتوافر عليها التليفون الأرضي، إذ حين لا يكون باسم أحد، ما من طريقة كذلك

لربطه بك إن لم ترغب، ويمكنك أن تستغني عنه بإلقائه بكلِ بساطة في سلة القمامة، وباستخدامه بطريقة لوث، يستحيل عضوًا صناعيًا، أداة بديلة.

تساءلت إن كان ثمَّة آخرون يستخدمونه مثلها. هاتفت الجريدة، وتحدثت عن الموضوع مع متخصصٍ في الأحداث، أخبرني أنَّه لا خبر لديه عن تعميم هذا الاستخدام للمحمول، رغم أنَّه سمع مَن يتحدث عن أناس، على العكس، يشترون أحد هذه التليفونات للاستخدام والرمي دون أن يعطوا أرقامهم لأحد.

ـ ولماذا يشترونها؟

ـ ليتلقوا مكالمة من الرَّب، يحملونه دائمًا على أمل أن يهاتفهم أي كائنٍ من بُعدٍ آخر. لو أنَّك سمعت حينها رنة تليفون قد تتخيل شخصًا أخطأ في الاتصال، لكنهم يفسرون هذه الأخطاء كرسائل من عوالم أخرى. ثمَّة جنون كثير مطلوق علينا.

وأنا من جانبي، كنت أحتفظ بتليفوني في درج المكتب، ومن حين لآخر أفتحه وأستمع للرسائل وأستمني أمام كل تلك الوقاحة النابعة من عدم التواصل البشري. أدركتُ أنَّ التليفون المحمول عضو تناسلي للذكر أو الأنثى دون تمييز، لكني حين انتبهتُ إلى أنِّي ألج تلك الأبعاد الجحيمية للجنس بعد أن هربت منها منذ زمن طويل، رميت الجهاز في القمامة وعدتُ إلى جنسانيتي المعتادة، وكانت جنسانية متشككة، مرتابة، جنسانية بائسة.

في أثناء ذلك، كنتُ أنا وفينا نتبادل النظر بطريقةٍ عادية. نجحتُ في أن أكسب ثقتها، ولم يكن ذلك صعبًا، إذ وجد كلٌّ منا في الآخر راحة (وهي، كي أقول كلَّ شيء، كانت تكسب مالًا). لقد انتبهتُ وأنا بجانبها أنِّي في السنوات الأخيرة انعزلتُ عن الواقع دون أن أنتبه لذلك. لا بدَّ أنَّ العملية بدأت حين استحلتُ صحفيًّا استقصائيًّا مدلَّلًا، وحرروني من الالتزام بالحضور إلى الجريدة يوميًّا. حقيقةً أنِّي منذ ذلك الحين قد كتبتُ أفضل تحقيقاتي، وجعلت الآخرين يتحدثون عن حياتهم، أو رويتُ ما كنت أراه على الجانب الآخر من رأسي، لكنني لم أكن أتكلم عن نفسي مع أحد (**ولا حتى مع لا أحد**)، وفينا تمتعت بمهارة أن تكون مصدر ثقة مطلقًا: لم تفعل شيئًا آخر إلا الإصغاء، حكيتُ لها عن طليقتي، وعن ابنتي، تحدثت معها بالتفصيل عن فترة اعتقدتُ فيها أنِّي قد أعثر على حقيقة أساسية في الزنا، وحكيت لها عن إخفاقي لعدم إنجابي ابنًا ذكرًا، ربما يكون تلميذًا، يكون صورةً مني، أو أجد فيه صورتي. حكيت لها حياتي، في نهاية المطاف، كما يفعل سكارى كثيرون مع بغيّات، وكلَّما حكيت لها عن هذه الحياة كنت أرتبها أمام نفسي في محاولة لمنحها معنى. رحنا نلتقي دائمًا في مطاعم، إذ كان مطمئنًا لها أن نكون محاطين بالناس. بعد اللقاء الأول، لم أعد أفكر أنَّها مريضة، بل كانت كذلك بالفعل، لقد أدخلت مرضها إلى تركيبتها ولم يعد يثير استغرابي، كما تقبّل عرج الآخر، أو عوره، أو عدم دقة مواعيده.

وفيما كنت ألتقي بـ فينا دون أن يعرف أحد شيئًا عن هذه اللقاءات، كان ألبارو أبريل يهاتفني بشكلٍ منتظم ليحكي لي حواراته التليفونية معها، مع أمه، وكان الذنب إذ أشعر به في هذه اللعبة المزدوجة يشبه ذنب ارتكاب زنا ملأني في زمن آخر، وبالتالي أعتقد في أعماقي أنّي كنت أنتظر في هذا المثلث أن أعثر على حقيقة أساسية جديدة. أخجل بعض الشيء من هذا التعبير، *حقيقة أساسية*، لكن لماذا نخادع أنفسنا، أظنُّ أنّي لم أبحث عن شيءٍ آخر في الحياة إلا عن حقيقة أساسية. ما لم أتوقعه، وأنا واعٍ على الأقل، أن تستخدم فينا (أو لوث أكاسو) أسراري لنسج حبكةٍ أكون فيها مع ألبارو متشابكين مثل خيطين داخل الجيب نفسه.

ذات يوم هاتفني ألبارو، وقال لي إنّه أخيرًا سأل أمه عن أبيه.

ـ سألتها مَن أبي.

ـ وماذا قالت لك؟

ـ في البداية لم ترغب حتى أن تسمع أي كلمةٍ في الموضوع، وأكدت أنّه من الأفضل ألا أعرف شيئًا، لكن شيئًا فشيئًا راحت تتنازل، وفيما يبدو يعمل صحفيًا، انظر إلى المصادفة! ربما تأتيني موهبة الكتابة من جينات وراثية.

شَحُب وجهي، وبلعتُ لعابًا سار في الطريق الخطأ فتسبب في سعالٍ منعني من الكلام.

ـ أهاتفك بعد قليل، قلت وأنهيت المكالمة.

تقيأتُ في التواليت وحين شددتُ السيفون، وفيما أرى انهمار الماء في شكل شلال، أدركتُ ما جرى: فينا (أو لوث أكاسو) كانت تجرجرني في الكلام بمهارة لتعرف أشياء عن حياتي تستغلها مع ألبارو؛ لتصف له أبًا خياليًا (رغم أنَّه واقعي، لأنَّه أنا نفسي) تكوّن لصورته وقعًا طيبًا عند كليهما. هي لم تكن تعرف العلاقة بيني وبين ألبارو، ولم يكن بوسعها معرفة أنَّها حين تكذب تنسج، مع ذلك، حقيقةً. دخلتُ المطبخ، شربتُ كوب ماءٍ على مهل، ومع كلِّ رشفة كنت أصنع من نفسي ضحيةً لقصة خيالية ساهمتْ في تكوينها رغبتي ذاتها. كلُّ شيءٍ كان أكذوبة، اتفقنا، نعم، لكنَّ مادة هذا الوهم بدأت تتآلف، أكرر باستمرار أنَّها أكذوبة، أكذوبة، مرَّت الدقائق صارت أكثر حقيقة. لقد عملتُ دومًا بمواد واقعية، وكنت أعرف بأي طريقة أزيّفها لتبلغ المعنى، أو العنوان الملائم لأهدافي. أمّا خبرتي مع السرد الخيالي، في المقابل، فيقتصر على تلك القصة: ***لا أحد***، وضمّنتُ فيها من ناحية أخرى عناصر ذاتية كثيرة كانت بطريقة ما تحقيقًا مستترًا، وفي النهاية لم أكن أعرف كيف يدافع اللاواقعي عن نفسه.

حين هدأتُ، هاتفتُ ألبارو.

ـ معذرة، يا فتى، لكن أصابتني نوبة سعال.

ـ لا تشغل بالك. كنت أقول لك إنَّ لوث، أمي، حدثتني عن أبي. تقول إنَّه صحفي ضاجعته منذ 25 عامًا حين بدأت

العمل في البغاء، وإنَّه كان يكتب تحقيقًا حول بغايا ينشرنَ إعلانات في الصحافة.

يا إلهي! أنا بنفسي حكيتُ لـ فينا أنِّي عملتُ هذا التحقيق، وأنِّي أريد الآن عمل تحقيق آخر لأرى الاختلافات بين فترتين. كان التحقيق القديم منشورًا بالفعل، بالتالي إن أراد ألبارو معرفة مَن «أبوه»، فليس عليه إلا مراجعة الأرشيف الصحفي، ولن يكون باستطاعتي أن أقول له إنَّها أكذوبة يا البارو، إنَّها أكذوبة؛ لأنَّ ذلك سيعني الاعتراف له بأنِّي أقابل فينا. من جانب آخر، لم يكن ألبارو يحتاج إلى مراجعة أي أرشيف، لقد كان يعرف أنَّ أباه هو أنا، وكان يتقرب مني حتى تتأسس على الأقل ضمنيًّا هذه المعرفة.

ـ على ما يبدو، لا يعرف أبي حتى أنَّ تلك البغي قد حملت بعد مضاجعتها، هي لم تخبره كيلا تعقّد حياته، ولأنَّها أرادت الاحتفاظ بالطفل لها. لكن لاحقًا، حين وُلِد، ظهرت المصاعب، واضطرت إلى التخلي عنه لمَن يتبنّاه.

ـ ألا تزال تلوك في الموضوع نفسه؟ عاتبته.

ـ أنت ماذا تظن؟ سأل بنوعٍ من القسوة.

ذات يوم، بعد أن تغدينا مرة أخرى في مطعم برينشيبي دي برجارا، حيث التقينا في المرة الأولى، اقترحت فينا أن نتناول القهوة في بيتها، كانت تعيش في ماريا مولينر، بالقرب من هناك، وتريد أن أتعرف إلى صديقة تكتب كتابًا حول القطنية، أو حول L› um bago، حتى أحكي لها تجربتي، لكن أيضًا، بحسب ما أضافت، لأرشدها بعض الشيء، إذ كانت فتاة صغيرة جدًّا ومترددة بين هل تكتبه في شكل تحقيق أم رواية.

كانت ماريا خوسيه تنتظرنا بفارغ الصبر، بعُصابة جلدية سوداء على عينها، قالت، بنبرة استياء، إنَّ القهوة بردت مرتين، وحين قدمتها لنا كانت تعرف بالفعل ما هو معروف، كانت تتحرك بطريقة غريبة، وتحاول التقليل من استخدام جانبها الأيمن قدر المستطاع. شرحت لي فينا في الخفاء أنَّها ليست عوراء، ولا عرجاء، ولا شيئًا شبيهًا، وإنَّما أوقفت تحريك هذا الجانب لتكتشف إمكانيات الجانب الأيسر، إذ تريد أن تكتب كتابًا أيسر، وبدا لي أنَّ البيت تفوح منه رائحة الطعام والدواء. والجو، على أي حال، كان غريبًا بعض الشيء لوجود مدفأة بغاز البوتان لها عجلات بالقرب من الأريكة.

ـ إذن هذا هو الصحفي المصاب بالقطنية، قالت فينا، وهي تشير لي بعد أن تركت المعطف على كرسي وجلسنا.

ـ حين تريد، أضافت ماريا خوسيه، وهي تسحب من المنضدة كراسة ذات ملحوظاتٍ بارزة.

ـ طيب، بالنسبة للقطنية لا تتعبني إلا في مواسم ـ قلت شيئًا متزنًا بسبب الموقف وسرعة حدوث كل شيء ـ ولا أعرف جيدًا على ما يتوقف الموضوع، ربما تغيير الفصول. في الخريف ألاحظه أكثر، لكنَّ الطبيب يؤكد أنَّ الخريف ليس له علاقة، وأنَّ المشكلة في قضاء ساعاتٍ طويلة في أوضاع خاطئة.

ـ هل تشعر بسوء حالتك في الخريف أكثر من بقية الفصول؟

ـ سألتْ بتعبير حكيم.

ـ هذا ما أظنه، لو أنَّ حالتي ثابتة لشعرت بالألم نفسه في الربيع أو الشتاء. طبيبي يعالجني بالمشي، يقول لي «تمشّ حضرتك»، لكني في الحقيقة فعلت كلَّ شيء: تمشّيت، لجأت للوخز بالإبر، والمساج... دون نتيجة تُذكَر. لقد اشتريتُ في التو كرسيًّا ألمانيًّا يقولون إنَّه ممتاز، وأعتقد يريحني قليلًا، رغم أنَّه يجب أن يريحني أكثر لارتفاع سعره.

كانت ماريا خوسيه تسجّل ملحوظاتٍ بيدها اليسرى، وانتني رغبة لأنزع منها الكراسة، وأكتب نيابة عنها، لكنَّ فينا كانت تنظر لها بإعجاب واحترام، كأنَّها ابنة درست مجالًا فشل فيه جميع رجال العائلة.

ـ فيمَ تفكر عندما تسمع عبارة منطقة القطنية؟

ـ كيف فيمَ أفكر؟

ـ نعم، ماذا يخطر لك؟

ـ لا أعرف، أفكر في هذه المنطقة من الجسد.

. ألم تتخيل قطّ منطقة القطنية كأرضٍ أسطورية، على طريقة ماكوندو جارثيا ماركيز، أو يوناباتوفا فوكنر؟

ـ لا، بصراحة.

ـ تخيل هذه البداية لقصة: «عندما عَبَرَ رسل الألم منطقة القطنية، هبّت ريح كهربية في العُرف الحرقفي».

نظرتُ بِحيرةٍ إلى فينا، وصدّرت لي تعبير انظر كم هي ذكية، وأنا نفسي بدأت أعدّ هذه الاحتمالية عبقرية.

ـ الحقيقة أنَّ وقعها جيد، قلتُ في النهاية مستسلمًا للمنطق الأدبي لهاتين المرأتين.

ـ كنت أعرف أنَّ وقعها جيد. المشكلة أنّي لست متأكدة هل ينبغي أن أكتب عن القطنية أم عن L› um bago، وأعتقد أنَّها تعني بالرومانية «العين الكسولة». يجب ألا نتجاهل وجهات تتخذها الكلمات، أظنُّ أنَّ الكتابة هي تتبُّع ما تريد الكلمات أن تقوله أكثر مما تريد أنت قوله.

تثاءبت فينا، كأنَّ الحوار أصبح فنيًّا فجأة، وقالت إنَّها ستستريح لبرهة، وإنّي يمكن أن أبقى كما أريد، فتحتِ الباب الأيمن واختفت داخل ما افترضتُ أنَّها غرفة النوم، وحين بقينا بمفردنا قالت ماريا خوسيه:

ـ إن لم يضايقك، سأخلع العُصابة لبرهة لأستريح.

خلعتْ العُصابة السوداء وانتصبتُ فجأة، أعتقد أنَّي حينها رأيتها لأول مرة، كأننا كنا في ظلمة، وحين رفعت العُصابة أنارتها عينٌ يمنى. جاء النور، في النهاية، بشكلٍ مبهر، وبعد النور، وبطريقةٍ متعاقبة، بدأ يظهر أمامي بقية الفتاة: رقبتها، كتفاها، نهداها، وركاها، كانت ترتدي بلوزةً بيضاء محكمة جدًّا، وبنطلون جينز، لكنها كانت حافية رغم أنَّ الطقس لم يكن يدعو لذلك، وكان شعرها القصير وغير المتساوي يوشي بشكل جمجمتها الكاملة.

ـ عندي وشم، قالت.

ـ أين؟

ـ في منطقة القطنية، قالت واستدارت، ورفعت البلوزة.

بالفعل كان الوشم على جلدها بعدة ألوان، منظر طبيعي صغير، وفارغ دون خط آخر إلا الخط الأفقي. على بساطته، كان خلابًا.

ـ أعجبك؟

ـ جدًّا.

ـ هنا بالتحديد، ومررت بظفر مقضوم حول خط أفقي ـ العرف الحرقفي.

ـ لكنه لا يُرى، أضفتُ، وأنا أنتظر أن تكشف المزيد.

ـ لا يُرى؛ لأنَّه على الجانب الآخر، إنَّه سلسلة جبلية غامضة يتسلقها رسل الألم.

وطلبت مني أن أكشف لها منطقة القطنية، وقلت لها لا، إنّي أشعر بالخجل، لكني وقعت في هذيان أنّها تريد شيئًا آخر، وحاولت جذبها نحوي لأعانقها، لكنها ابتعدت دون عنفٍ وقالت:

ـ في ظروفٍ أخرى ما كنت قاومت، لكني أحفظ نفسي لـ ألبارو أبريل.

ـ ألبارو أبريل، الكاتب؟

ـ نعم، هل تعرفه؟

ـ قليلًا.

ـ إنّه عبقري، ورغم أنّه لا يعرف إلى الآن، إلا أنه خُلِق لذلك.

لم أسمع في حياتي أحدًا ينطق هذا الهُراء بهذه الثقة، لقد أصبحتُ نصيرًا للحماقة، رغم أنّها لم تُفِدني في شيء؛ إذ ظلت حاسمة في تقديسها لـ ألبارو.

ـ أنا أحتل جانبي الأيسر؛ لأنَّ جانبي الأيسر هو ما يقودني إليه.

ـ أنا أدفع حياتي لأكون جانبك الأيسر، قلت.

ابتسمتْ واضطجعتْ على الأريكة، في جو نوستالجي وبعيد، تراجع انتصابي شيئًا فشيئًا، ومن رماده نبتت من جديد فطرتي الصحفية. سألتها عن علاقتها بـ فينا، ودون جهدٍ كبير بدأت أعرف قصة لوث أكاسو من جانب آخر مختلف عن جانب ألبارو، عرفتُ كيف راحت إلى ورش أدبية، والتقت يتيمًا بالفطرة، قد يكون ابنها، عرفتُ كذلك بأي مصادفةٍ دخلت ماريا خوسيه في علاقة مع لوث

واطّلعتُ على تفاصيل تعايشهما، مثل أنّهما يعيشان في براغ وينامان معًا.

ـ هل تعرف براغ؟ سألتني.

ـ زرتها ذات مرة.

ـ ألا يبدو لك أنَّ هذه الشقة من هناك؟

بدا لي أنّه نعم وقلت لها ذلك، واتفقت أيضًا في أنّه عنوان جيد لرواية.

ـ امرأتان في براغ، له وقع حسن.

ـ أهديه لك، قالت.

ـ أنا لا أكتب روايات، لكني لو قررتُ ذات يوم، سأقبل الهدية.

ـ لماذا لا تكتب روايات؟

ـ لأنّي أفضّل العمل على بياناتٍ من الواقع.

ـ يا للهوس بالبيانات! تفكر لوث أنَّ قصة القطنية تستحق أن تكون رواية، فيما قصة «العين الكسولة» ينبغي أن تكون تحقيقًا.

ـ مَن يفكر ذلك؟

ـ لوث، كررت وهي تومئ في إشارة ناحية غرفة النوم.

ـ كنت أظنُّ أنَّ اسمها فينا.

ـ فينا، لوث، كلُّ الأسماء واحدة. أكيد لن تتطلع لوضع اسمها الحقيقي في الجريدة.

قصدتُ أن تمرَّ عدة ثوانٍ قبل أن أُضيف:

ـ أظنُّ أنَّها ليست عاهرة حقيقية.

ـ لماذا تقول ذلك؟

ـ لأنِّي أعرفهنَّ ولا تشبههنَّ.

ـ وما الفرق إن كانت منهنَّ أم لا؟

أدركتُ أنَّ ماريا خوسيه لن تساعدني على رسم حدود بين فانتازيات لوث (أو فينا) والواقع، لكني للمرة الأولى في حياتي استمتعت بحالة عدم التعريف هذه. مساءات الشتاء في براغ قصيرة، والنور كان يخفت بالفعل في شارع ضيق تطلُّ عليه الشبابيك مثل إطلالة زورق ماءٍ على قناة. قد تكون ماريا خوسيه دقيقة بشكلٍ هائل في وصف الأحداث، وتستمتع بذلك، لقد صنعتْ لي لوحة واعية بحياتها اليومية مع لوث (وقد كفت عن أن تكون فينا بشكل نهائي). عرفتُ في أي جانب من السرير تنام كلُّ واحدة منهما، ومَن تجهّز السَّلَطة أو تعد الإفطار. عرفتُ أيضًا عن وجود إمكانية أن تكون مجرد موظفة مكتئبة، عرفتُ أنَّها قد تكون أرملة أو لا، وأنَّها قد تكون أنجبت طفلًا وهي مراهقة أو لا. كانت ماريا خوسيه جريئة، ساذجة، ولكنها لم تكن خائنة. بوسعها أن تضحي بحياتها من أجل لوث، رغم أنَّ مزاجها السردي كان يدفعها للحكي بلا توقف، قلت لها ذلك نفسه، إنَّ لها مزاجًا سرديًّا، غير أنَّها ردت بأنَّ كلَّ الناس يتمتعون بمزاجٍ سردي أيمن.

ـ مع ذلك، قد لا أعرف كيف أحكي لك كلَّ ذلك من الجانب الأيسر، أضافت، ومن الجانب الأيسر أضمن لك اختلاف الحكاية.

ـ في أي شيءٍ مختلفة؟

ـ لا أعرف. إن كنت أعرف، ما احتجتُ إلى تجربته، كأنَّ الجانب الأيسر ليس فارغًا بالتحديد، وإنَّما حافل بأشباحٍ لم تتح لها فرصة التعبير عن نفسها، وأنا أريد أن أعطي لهمَ ولنفسي هذه الفرصة، لذلك إن سمحت لي سأضع العُصابة مرة أخرى لأستمر في هذه الممارسة.

حينئذٍ سألتها عن محتوى الغرفة اليُسرى.

ـ لا أعرف، قالت. لم أسأل قط، إنَّها مغلقة بمفتاح منذ يوم وصولي.

ما إن وضعت العُصابة وأخضعت جانبها الأيمن للسكون السابق، انطفأ جمالها. قلت لها ذلك، قلت لها إنَّها حين فتحت الجفن الأيمن أضاءت كلَّها، وإنَّها عندما أغلقته ساد ظلامها، فأجابتني بأن أتخيل كيف سيكون الأيسر عندما تعطي فلاشر بضوء هذا الجانب.

ـ لكن هيا نعمل، أضافت وهي تسحب الكراسة، لقد جئتَ إلى هنا لنتحدث عن القطنية.

نظرتُ في الساعة، وقلتُ نواصل في يوم آخر، ونهضتُ. سحبت المعطف لأغادر، وفي لحظة الوداع أعطتني ورقة.

ـ اقرأ ذلك على مهل، وقل لي كيف يبدو لك كمدخل لرواية.

لمّا وصلتُ إلى الشارع، وتحت عمود إضاءة، قرأت النص وكان يقول: «كان لديّ حوض سمك في الصالة، في هذا الحوض، بدلًا من أسماك ملونة، كان هناك كَركَندان بفتحتَي فم محكمتين بشريطين مرنين حتى لا يعضُّ أي منهما. كان أبي يُطعِم طوال العام هذين الكَركَندَين لنأكلهما في أعياد الميلاد. يا إلهي! كان الأمر يشبه أن نأكل أخوين توأمين».

حينها، وبشكلٍ غير مفهوم، انفجرتُ في البكاء، وأنا مقتنع بأنّي انفجرت في الضحك.

حين فتحتُ البريد الإلكتروني وجدتُ رسالة من ألبارو أبريل، مرَّت عدة أيام دون أن يهاتفني، ولا أنا هاتفته، وفهمتُ أنَّه لا يفضّل الكلام معي. كانت الرسالة تقول ما يلي: «كان يكفي لأكتشف هوية أبي مراجعة الأرشيف ومعرفة مَن، قبل مولدي بتسعة أشهر، نشر في إحدى جرائد تلك الفترة تحقيقًا حول البغاء، لقد قررتُ ألا أفعل ذلك الآن، ما زلتُ أتكلم مع أمي بانتظام، ولا واحد منا اقترح أن نلتقي. أستطيع التواصل مع هذا البُعد المسمى «أمي عبر التليفون» فحسب. بالتليفون والخطابات: أرفق لك «رسالة إلى أمي» بعد أن تمكنت من كتابتها أخيرًا هذه الأيام، لم ترُق لناشري، وقرر عدم نشرها، وحتى الآن، لحُسن الطالع، لم يطلب مني استعادة العربون. هل يمكن أن تجري أي مكالمةٍ لتُنشر في جريدتك كقصة؟ شكرًا مقدمًا. بالمناسبة، هاتفتني الراهبة السابقة مجددًا، لكنها لم تقل شيئًا جديدًا، أرادت فحسب أن تتأكد من أنَّ المعلومة لم تتسبب لي في أي أذًى».

في تلك اللحظة خمّنتُ أنَّ الراهبة السابقة لم تكن إلا ماريا خوسيه، وعلى الفور فتحتُ الملف المرفق لأقرأ «رسالة إلى أمي»، واصطدمتُ بالقصة التالية:

جسد الجريمة

ألبارو أبريل

أمي الحبيبة: أكتب لكِ هذا الخطاب من أجل المال، لقد دفعت لي دار النشر عربونًا نقدًا، وكان ذلك شرطي الوحيد حين قدّموا لي هذا الاقتراح: أن يدفعوا لي نقدًا. كان ناشري جالسًا على الجانب الآخر من المكتب، بظهر الكرسي مفتوحًا للوراء، واضعًا بيني وبينه مسافة هيراركية[1]. دائمًا ما يتكلم هكذا مع كُتّاب يمكن للدار الاستغناء عنهم، رغم أنّه يتذلل ككلبٍ أمام المؤلفين النجوم. أنا لستُ واحدًا من نجومهم، حتى الآن، هكذا حين أدخل مكتبه يفتح ظهر الكرسي، ويتكئ للوراء ويُحدّق فيَّ من مسافة كمَن يُحدّق في عاصفة تتقدم نحوه من خط أفقي. نشر العام الماضي كتاب خطابات الكاتبات إلى آبائهنَّ، وباع جيدًا. والآن يريد أن يكرر التجربة مع مجموعة مؤلفين، نكتب رسالة إلى أمهاتنا، قلت له أقبل التكليف في مقابل أن يدفع لي عربونًا نقديًا.

ـ لا أحد يدفع هكذا الآن، أجاب.

ـ لا أحد يكتب خطابات الآن. بالإضافة، أمي ميتة.

ـ ما علاقة ذلك بموتها؟

ـ إنَّ الالتزام أكبر.

---

(1) تدرّج في المكانة أو السلطة. (م)

انفجر في الضحك حتى يقوّض جاذبية إجابتي، ثم قال ألا أفهم التكليف بشكلٍ حرفي.

ـ يمكن أن تكتب إلى أ. متخيلة وحيّة. المهم أن يكون النص في شكل خطاب.

ـ اتفقنا، سأفعل لو دفعت لي مقدمًا.

قال لا في البداية، لكنه حين انتبه إلى أنّي لن أشارك في المشروع بطريقة أخرى، غادر المكتب ليتحدث مع شخص، وتركني ربع أو ثلث ساعة خلالها تساءلتُ عن سبب إصراري العبثي. كانت جدران المكتب مزينة بصور مؤلفي الدار. بحثت بلا جدوى عن صورة أظهر فيها، حتى لو كنت في المستوى الثاني، وفي النهاية سلّمت بأنّي كاتب تافه في رأي هذا الخنزير. حينئذٍ تصاعدت إلى صدغي موجة حقد ووقعت فريسة لواحدة من نوبات الكراهية. لم أحدثكِ قط عن نوبات أعاني منها منذ صغري، يا أمي، لكنها فظيعة، تهاجمني في أي لحظةٍ أمام مواقف يمكن أن يتجاوزها أي إنسانٍ دون صعوبة، رغم أنّها معاكسة. إنّها نوبات تنجم عن اقتناع بأنّ العالم مدين لي بشيءٍ يكبر كلّما كبرتُ بدوري. حين أفكر أنّي قد أموت دون أن يسدد دَينه، يقطع الحقد أنفاسي، ويتدفق الضغط إلى صدغَي بتقلصاتٍ مثيرة للجنون. لا تسأليني متى بات العالم مدينًا لي بهذا الدّين، ولا في أي ظروف؛ لأنّي لن أستطيع الإفصاح عن ذلك، لكني عرفتُ دومًا أنّكم مدينون لي بشيء، وأظن أنكِ كنتِ تعرفين ذلك. بالفعل، كنتِ الوحيدة إذ حاولتِ أن تدفعي لي على طريقتكِ.

انتابتني نوبة كراهية قوية تشبه ما كنت أعانيها في الطفولة ضد أبي أو مدرّسيّ. أبي الآن هو الناشر، وهو مَن يساومني على النجاح والمجد، حين لا يفتح لي ثغرة في معرض الصور ذاك. ربما أكون كاتبًا صغيرًا، لكني كاتب صلب، وهو يعرف ذلك، أنا مُترجَم إلى سبع لغات، وتناولت روايتي أطروحات دكتوراه في الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا. أدفع له من اسمي ما يعوّض قلة مبيعاتي، ماذا يكلفه وضع صورة لي في مكتبه حتى لو أزالها بعد خروجي من الباب؟

ذات يوم، وكنت في التاسعة أو العاشرة، تغدينا في مطعم مع زوج آخر من أصدقائكما، أتذكّرهما جيدًا؛ لأنَّ وجودي هناك لم يكن طبيعيًّا: ربما لم تجدا أحدًا لأبقى معه، وحدث أنَّه في أثناء الغداء، وربما لوجودي برفقتكما، بدأتما في الحديث عن الأبناء، وفي لحظةٍ محددة أخرج الرجل محفظته، وأرانا صورة ابنه، وكان في سنّي نفسه. أدهشني أنَّه يحمل ابنه في محفظته، ويطلعنا على صورته بكلِّ هذا الفخر. عند العودة إلى البيت، فتّشتُ سرًّا في محفظة أبي، ولم أجد صورتي. كانت تلك واحدة من مراتٍ أولى لاحظتُ فيها تقلصات في صدغَي، ونقصان الهواء في رئتَي، تصديتُ لنوبة كراهية في غرفتي، تحت سريري، متغذيًا على فكرة فانتازية مفادها أنّي سأكون مشهورًا بأي طريقةٍ، وأنَّ بابا سيحمل صورتي دائمًا ليُريها لكلِّ الناس بكلِّ فخر.

والآن، بعد سنواتٍ طوال، تنفجر الفكرة الفانتازية في مكتب ناشري. كنت أتخيل أنَّ كتابي التالي حقق نجاحًا عالميًّا، وأنَّه يجري

ورائي حتى لا أغادره. كنت أتخيل ذلك، وأتخيل أيضًا كلَّ جدران الدار من المدخل، وحتى غرفة تصوير الأوراق، وكلُّها مكسوة بصورٍ لا يظهر فيها إلا أنا وأنا أتلقى الجوائز، أو ألقي محاضرات. قد تبدو لكِ فكرة مجنونة، يا أمي، لكن ولا حتى مع تحققها سيسدد لي العالم واحدًا في المئة من دَينه. يا إلهي! لو أني فكرتُ، كلُّ ما فعلته في الحياة فعلته بدافع الخوف: كنت تلميذًا متفوقًا خوفًا من ألّا تحبينني، كنتُ مطيعًا خوفًا من ألّا يفخر بي أبي. وأنا كاتب جيد خوفًا من إحباط أمل النقاد، ومن أجلهم أكتب دائمًا عملًا يمتدحونه بالآلية نفسها. وأنا مواطن مثالي خوفًا من السجن، أو من ألا يعترف العالم بدَين يدين به لي منذ زمن بعيد. بالتأكيد، قبلتُ التكليف بكتابة هذا الخطاب إليكِ خوفًا من أن أبدو كاتبًا صعبًا، وكان شرطُ أن يدفع لي نقدًا محض مزحة، انحرافًا لو أردتِ. وناشرونا يقبلون انحرافاتنا؛ لأنَّهم في مقابل ذلك يحتفظون بأجزاء من أرواحنا. لو أنَّ الناشر اضطر للظهور اليوم في هيئة بشرية، سيفعل ذلك في صورة ناشر.

بهذه الأفكار تراجعت نوبة الكراهية، واستعاد ضغط الصدغين إيقاعه الطبيعي. حينئذٍ تساءلتُ أي نوع من الرسائل أكتب، وإلى أيّ من أمهاتي أرسل: إلى أمي الخيالية؟ إلى أمي الواقعية؟ إلى أمٍ أحلم بها؟ إلى أمي الميتة؟ إلى أمي الحيّة؟

في الأثناء، فُتح باب المكتب، ودخل الناشر وقال إنَّه تحدّث مع المدير المالي، يحاولون تدبير الدفع نقدًا، وفيما يدبرونه أو لا،

تحدثنا لبرهة عن روايتي المقبلة. ليس لديَّ رواية مقبلة، لكني قلت له بتأثرٍ بلاغي إنَّي أعمل في رواية عظيمة، وبدا أنَّه قلق بعض الشيء؛ لأنَّه عدَّل ظهر الكرسي لوضعه الرأسي، كأننا فككنا الحزام وفي الهبوط، وهي أكثر اللحظات حساسية في الطيران، وسأل متى ستكون جاهزة.

ـ لا أعرف إلى الآن، أجبته.

ـ سيكون رائعًا لو كان في الربيع، قال.

على ما يبدو، لقد خالف معه أحد المؤلفين النجوم، ويعاني من الشُّح في الأعمال الجديدة في فترة تستعد فيها دور النشر برهاناتها الكبرى.

ـ سنرى، لكن عليك أن تعلّق إحدى صوري على الجدران، أضفتُ بنبرةٍ ساخرة كأنَّي أمزح معه، رغم أنَّه لاحظ في الحال أنَّها مزحة جادة.

ـ سأعلّق لك صورة، لكن لاحظ أنَّي لا أعلّق إلا صور أكثر مَن أكرههم. المشكلة أنَّ أكثر مَن أكرههم هم أكثر مَن تُباع كتبهم.

حكى لي لاحقًا بعض أسرار هؤلاء المؤلفين، وكان سيركع عند أقدامهم لو دخل واحد منهم من الباب في تلك اللحظة، وفي تلك اللحظة نفسها قررتُ أنَّي لا أريد تعاطف ناشري، وإنما احترامه، وخوفه؛ لقد أدركت أنَّ الناشر يحترم فحسب مؤلفين يغتابهم.

بعد برهةٍ، تلقى مكالمة تليفونية، وفي الحال دخلت سكرتيرته بظرفٍ مكتظ بفلوس، رحت أعدها وأنا مبتسم أمامه، كنت أعرف أنّه يتساءل عمّا يدور في رأسي، لكن في رأسي، في الحقيقة، لم يكن شيءٌ يدور، باستثناء السرور؛ لأنّهم قبلوا تحقيق نزوتي في تلقي المكافأة نقدًا، ثم أحضرت الظرف إلى البيت باحترام كأنّ محتواه، أكثر من كونه عربونًا، هو رمادك يا أمي. لا تسأليني عن سبب هذا الرباط بين الفلوس والرماد؛ لأنّي لا أعرف، ربما شرعتُ في كتابة «رسالة إلى أمي» حتى أعرف.

لمّا وصلتُ إلى البيت، احتفظتُ بالظرف في الدرج الأعلى بالمكتب، وهكذا استحال مقبرةً. وكلَّ يوم قبل أن أبدأ في العمل، أنثر الأوراق المالية على المكتب كأنّي أوزّع بقاياكِ، وأظلُّ أتأملكِ، أتأمل الفلوس، في انتظار أن تمليني أنتِ نفسكِ رسالة يجب أن أكتبها؛ إذ لم أكن أعرف ماذا أقول لكِ، وما زلتُ لا أعرف، ولا كنت أعرف إن كان ضروريًا أن أكتب لكِ أنتِ بالذات أم لأم أخرى متخيلة، ولا إن كنت أكتب لكِ من وجهة نظري أم من نظر راوٍ متخيل، ولا أعرف إلى الآن. الحكاية أنّي بهذه الشكوك، وربما لا تكون إلا ذريعة للكتابة، كان موعد تسليم الرسالة المتفق عليه قد حان دون حتى أن أبدأ فيها، وبالتالي هاتفت ناشري واعتذرت.

ـ لا أستطيع الكتابة، لا شيءَ يلهمني، قلتُ وأكدت له أنّي في اليوم التالي أحوّل له العربون.

ـ بلا عربون، ردَّ بضيق، أنت أصررت أن أدفع لك نقدًا، وبالتالي أعِد لي المبلغ بالطريقة نفسها.

جادلت معه لبرهة، وفي النهاية قال لي لقد دفعتُ لك مالًا بالأسود، وصعقني. لديَّ خوف شبه ديني من كلِ ما يتعلق بالضرائب، لذلك اعتقدتُ لثانية أنَّهم سيلقون بي في السجن، صرختُ فيه بأنَّه ليس من حقه أن يفعل ذلك معي، وأجابني بأنَّه حين يطلب منه أحدٌ عربونًا نقدًا فهو يطلب الدفع بالأسود، حتى لا يقدّمه في الإقرار الضريبي.

ـ هذا هو الكود، أضاف. وتعبتُ كثيرًا لأحصل عليه؛ لأننا لا نعمل بالمال الأسود، في قطاعنا على الأقل.

أغلقتُ الخط وأنا محمّل بتأنيب الضمير، وأخرجتُ الفلوس من الظرف (من المقبرة بالأدق) وفرشتها أمامي مجددًا على المكتب. ذاك المال لم يكن جسدكِ فحسب، يا أمي، وإنَّما غدا فجأة جسد الجريمة، كان جسدًا مخالفًا للقانون، لا ينبغي أن يعرف أحدٌ ما في حوزتي. في ذاك اليوم أغلقتُ الدرج بالمفتاح، وفي تلك الليلة لم أنم، وفي الصباح التالي سحبت المبلغ نفسه من البنك ورحتُ لأعيده إلى الناشر، فنظر في الفلوس ورقة ورقة، وراجع ملفًا مررته له السكرتيرة.

ـ هذه ليست الأوراق نفسها، قال في النهاية. كانت أرقامها مختلفة.

ـ وما الفرق؟ سألت وأنا قلق نوعًا ما، وشعرتُ بأنّي ورطتُ نفسي في مسألةٍ مزعجة جدًّا لتماسكي الأخلاقي.

ـ الفلوس بالأسود لها معايير. إن لم ترغب في كتابة الرسالة، لا تكتبها، لكن أعِد لي الأوراق المالية نفسها في المقابل، هذه الأوراق لا تصلح.

ـ لقد صرفتها.

ـ لسوء حظك، يا فتى، عليك اتباعها ورقة ورقة، أو كتابة رسالة إلى أمكِ، اختر.

ـ أعرف أنَّها مُزحة، قلت له بغصةٍ في الحلق، لكنها مُزحة ثقيلة الظل.

ـ ليست مُزحة على الإطلاق، لو أردتَ، أقول للمدير المالي ليشرح لك المسألة بنفسه.

حينئذٍ مدَّ يده ليرفع التليفون، لكني منعته مذعورًا، لم أرد أن أزيد تعقيد المسألة كما أنِّي أخاف المديرين الماليين أكثر من خوفي من الشرطة.

ـ اتفقنا، أجبته في محاولة لإخفاء استيائي، غدًا أوفّر لك الفلوس نفسها.

وغادرتُ دار النشر بقرار أن أعيدها له، لكني حين عدت إلى البيت، ولمست الأوراق من خلال الظرف أدركتُ أنِّي لن أستطيع الاستمرار في المتاجرة بجسدكِ، وذلك رغم شكي أنَّ الناشر كذب عليّ؛ ليجبرني على كتابة هذه الرسالة، يا أمي.

ومرَّت عدة أيام والناشر لم يهاتفني، وبالتأكيد لم أكن أنتظر أن يفعل ذلك فورًا. هو كان يعرف أنَّ الدَّين قائم، ويعرف بإفراط

ضعف شخصيتي. حينها لم أعد أتجرأ على فتح الدرج، حيث أحتفظ بالمال الأسود، المال السري، مال حصلتُ عليه بالحرام، بالطريقة نفسها حصلتُ عليكِ في خيالاتي الجنسية وأنا طفل، هل كنتِ تعرفينَ ذلك؟ هل كنتِ تعرفينَ أنَّي خلال فترةٍ طويلة كنتُ أهذي معكِ؟ ربما نعم. هل تتذكرينَ السلة الخوص للملابس المتسخة في حمّام البيت؟ أحيانًا كثيرة، حين كنت أتوقع أنكِ ستأخذينَ دشًا، كنت أختبئ في هذه السلة الكبيرة، وأتلصص عليكِ من بين ثغرات الخوص، ولا يزال بوسعي أن أكرر كلَّ إيماءة كنتِ تغسلينَ بها جسدكِ، إذ أحتفظ في ذاكرتي بصور وأفلام مؤرشفة. بالمناسبة، أتذكر المفاجأة والرعب حين اكتشفت صدركِ، إذ لفترة طويلة ظننت أنَّ صدر النساء أملس، وكان اكتشاف الحلمة مثل اكتشاف مرض الإدمان، فمع أنَّي كرهتها في البداية، إلا أنَّي لم أستطع العيش من دونها لاحقًا. لم تكن حلمتاكِ عاديتين كذلك، يا أمي، كان ينقصهما الهالة، ومن الصدر كانتا تبرزان دون تدريج، كأنَّهما لم يكونا في التصميم الأصلي، وشخصّ ما طعّمكِ بهما بطريقةٍ وحشية. بحثت عنهما فيما بعد في ألف امرأة مختلفة دون أن أعثر عليهما في أي واحدة. منذ فترةٍ، ارتبطتُ بطالبة طب، ورسمتهما لها وقالت لي مستحيل، وإنَّ هاتين الحلمتين لا وجود لهما إلا في خيالي، لكني أظنُّ أنَّها تكذب حتى تكفَّ عن البحث، إذ ربما تكون هذه الميزة التشريحية (التشريحية؟) شيئًا أوحد يفصل بيننا. لم أكفَّ قطّ عن تساؤل أين ينتهي التشريح وتبدأ العواطف، بالفعل لا أعرف هل كنت

أتفحص العواطف أم التشريح من السلة الخوص، إذ الحقيقة أنّي كنت أحاول السيطرة على نفسي حتى لا تمنعني الإثارة من تسجيل ملاحظاتٍ عن كلِّ ملامحكِ لاسترجاعها في خيالي لاحقًا، وأنا في عزلة غرفتي، لكني لم أستطع قط. كان بوسعي أن أعيد تركيبكِ جزءًا جزءًا، لكني فيما بعد، حين كنت أحاول تركيبكِ كاملةً، كانت الأجزاء تفقد محيطها، تذوب في الكلِّ، كأنَّ بين الكلِّ والأجزاء صراعٌ لا أستطيع حتى الآن أن أحله.

كنتُ هناك، أتلصص على تضاريسكِ العارية، مختبئًا بملابس البيت كلِّه المتسخة، بقمصان نومكِ، بلوزاتكِ، ملابسكِ الداخلية، كذلك بملابس أبي، وكانت تتعايش مع ملابسكِ بشكلٍ غامض. تعود لي ذاكرتي الشمّية كلما طلبتُ منها رائحة ملابس بحثتُ عنها كذلك في ملابس نساء أخريات، ولم أحقق نجاحًا يذكر بكلِّ صراحة.

عليكِ أن تعرفي، يا أمي، أني اعتدتُ على الاتفاق مع بغايا يأتينَ إلى بيتي، وأطلب منهنَّ أنَّ يستحممنَ أمامي فيما أتشمم رائحة ملابسهنَّ، وحين تميل إحداهنَّ لتغسل كعبيها، وتسلم صدرها جبرًا للجاذبية، أبحث أنا عن لحظةٍ، لحظةٍ وحيدة، أسترجع فيها واحدة من لحظاتٍ عشتها حينذاك. وأتذكر أنكِ أحيانًا كنتِ تنظرينَ من البانيو، بمغزى ما، نحو سلة الملابس، كأنكِ تبحثينَ عني بين ثغرات الخوص، ربما لم تجهلي وجودي، رغم أنكِ كنتِ تسمحينَ لي بفعل ذلك؛ لأنكِ كنتِ تعلمينَ بدَيني للعالم، وكنتِ تفكرينَ

أنَّ هذه إحدى طرق سداده. وبالفعل أتذكر نظرة تواطؤ حين كنتُ أدخل غرفتكِ دون استئذان فأباغتكِ وأنتِ بنصف ملابسكِ، أو نبرة صوتكِ حين تطلبينَ مني تزرير فستان لا تبلغ يداكِ أزراره. كان شغفي يتنقل ذهابًا وإيابًا، إذ كنتِ تعيدين لي جزءًا منه في شكل تفاصيل غامضة تحمل معنيين. قلتُ لكِ إنكِ تدفعينَ دَينًا كنت أشعر بأنّي دائنه، لكني أيضًا أتساءل ألم تساهمي في تضخيمه، إذ ما إن خرجتُ إلى الحياة أدركتُ أنَّه ما من امرأة أخرى يمكن أن تعطيني مثلما أعطيتني. كنتُ سأواصل مع أي امرأةٍ تضمن لي أن تعطيني حتى نصفه. ثمَّة أشخاصٌ لديهم القدرة على تضخيم الدَّين في وقت سداده. حدث لي منذ فترة قريبة مع صديق أقرضني مالًا لسداد بعض فواتيري، وحين أعدته له، قَبَّلَه بطريقةٍ شعرت معها أنَّ دَيني له زاد. المشكلة الآن أنَّه صار دَينًا أخلاقيًا، بمعنى أنَّه من ديون لا يمكن سدادها.

راجعت ما كتبته حتى هنا، وأدهشني أنَّ الفلوس تظهر مرتبطة أحيانًا بجسدكِ، لكنها كذلك بالحب (لم أعرف حبًّا إلا حب البغايا)، برماد السجائر، بالكتابة، والآن بالصداقة. تتمتع الفلوس بهذه الفضيلة البروتينية لتستحيل ما تريده أو ما تكرهه. بدأتُ تخمين سبب إصراري على أن يدفعوا لي نقدًا عربون رسالة، على عكس كلِّ توقع، شقَّت طريقها، يا أمي.

كانت نتيجة الرغبة في الإشباع بين جسدكِ وجسدي أن رغبتُ في أن أكون لقيطًا أكثر من أي شيءٍ آخر في العالم؛ إذ لو كنتُ لقيطًا

لأمكن أن أستمتع دون شعور بالذنب بتلك التجارب الإجرامية. يعثر المرء على ما يبحث عنه، وأنا عثرتُ على عدة علامات في هذا الاتجاه. وخلال فترةٍ، فتّشتُ في كلِّ خزانات الملابس بالبيت، في كلِّ الأدراج، في كلِّ الدفاتر. فاجأني رؤية أنَّ الحياة كانت مصنوعة في جزءٍ كبير منها من وثائق، بدايةً من شهادة إشغال البيت وحتى المكاتبات الحكومية، مرورًا بإيصالات النور والغاز والمدرسة وشهادات الميلاد والوفاة والشهادات الجامعية والصور الفوتوغرافية الراقدة في المنطقة الأشد إظلامًا من خزانات الملابس، داخل علب الأحذية. لم أعثر، يا أمي، على أي وثيقةٍ تقول إنَّي ابنٌ مُتبنًى، غير أنَّي لم أستطع كذلك العثور على شبهٍ لي في صور الأقارب البعيدين أو القريبين، وقد فحصتها بعدسةٍ مكبّرة خلال تلك الأيام.

بالإضافة إلى ذلك، لو كنت مُتبنًى، لاكتسب تجاهل أبي لي أي معنى، قلتُ «تجاهل»، لكنه كان أكثر من ذلك أحيانًا؛ إذ أنا متأكد أنَّه في أحيان كثيرة رآني كمنافسٍ له، بدأتُ أتلصص عليكِ وأتنصت على حواراتكِ، وبدا لي أنكِ في كثيرٍ منها، وبطريقةٍ موارية، تشيرينَ إلى ظروف تبنّيكِ لي، ويظهر عليكِ أحد أشكال الندم. وفي أحد الأيام كنتِ تتحدثينَ مع أحد، ربما جدتي، وسمعتكِ تقولينَ:

ـ أنا نادمة، لو عاد الزمن لن أفعلها.

وحين انتبهتِ إلى أنَّي أمامكِ، أعطيتني ظهركِ في خجل، وأخفضتِ صوتكِ. علامَ كنتِ نادمة؟ لم أكن أتمنى قط أن أكون ابنكِ المتبنّى، بل كنت أحبُّ أن أكون شيئًا أكثر. كيف لا يراودني

شعور بأنَّ العالم مدين لي بشيء؟ مدين لي بأبوين حقيقيين، وبامرأة أرتبط بها دون أن أبحث عنكِ فيها. لقد فعلتُ كلَّ شيءٍ خشية أن أفقدكِ بينما لم أمتلككِ أصلًا في الواقع.

الآن أمتلككِ داخل درج مكتبي: لقد اتخذتِ شكل أوراق مالية سلّمها لي الناشر؛ لأكتب لكِ هذه الرسالة، ولم أجرؤ على فتح الدرج، التابوت بالأصح، لكنني كلَّ يوم كلّما هممتُ بالكتابة، أو تصنُّع الكتابة، أشعر عبر الخشب بنبضات جسدكِ المحبوس في ظرفٍ ما كان لي قطّ أن أقبله، ولم أتمكن من كتابة جملتين متلاصقتين، جملتين يا أمي، وأنا أعيش من كتابة الجُمَل، ومن الجُمَل أدفع إيجار البيت، والزيت والملح والبغايا والخبز كلَّ يوم. لم يكن ممكنًا أن يمرَّ وقت طويل دون كتابة جُمَل، في النهاية؛ لأنَّ الجُمَل كذلك قماشٌ أخبئ فيه جسدكِ الغائب، وأحيانًا جسدي الغائب، إذ ثمَّة أيامٌ لا أشعر فيها بنفسي، ولا أرى فيها نفسي في المرآة تقريبًا. تبرر الكتب وجودي بطريقةٍ أتمنّى بها تبرير وجودكِ كذلك، كلُّ شيءٍ كتابة، كما ترينَ.

في أثناء ذلك، حدث شيءٌ برمادكِ الحقيقي، حين حرقناكِ، لم يكن مسموحًا كما تعرفينَ أن يحمل فُقداؤكِ الرماد إلى البيت، وبالتالي لم يكن ممكنًا كذلك تحقيق وصيتكِ بإلقاء الرماد في البحر، وهكذا بعد أن اشتريت من محل الحانوتي وعاءً، وضعت بقاياكِ في مشكاة حينذاك، لكنَّ هذه الأيام حرقوا كاتبًا، واضطررت لحضور الطقس كواجب، ولاحظت بدهشة أنَّ الأبناء بعد حرق الجثة حملوا

معهم وعاء الرماد، حين وصلتُ إلى البيت هاتفتُ محل الحانوتي، وقالوا لي إنَّ القانون قد تغيّر بالفعل، ومنذ فترةٍ قريبة بات مسموحًا لأهل المتوفى أن يحملوا بقايا الحرق، إن أرادوا ذلك. شرحتُ حالتي، لأرى إن كان ممكنًا استعادة رمادكِ، وقالوا لي بالتأكيد، لكن يجب أن أمُرَّ بسلسلةٍ من الإجراءات البيروقراطية، وثبطت عزيمتي. أغلقت الخط دون تسجيل ملحوظة بالإجراءات؛ إذ لستُ مستعدًّا لملء استماراتٍ، ولا للجري على شبابيك حكومية.

لكني الآن، كلما جلست على المكتب لأتصنّع الكتابة، ذكّرني جسد الجريمة، المختبئ تحت مفتاح الدرج، برمادكِ المحفوظ في برودة مشكاة القبر؛ ليتضاعف بذلك الذنب. في الظاهر كانت الذنوب مختلفة، واحد ذو طابع أخلاقي، وآخر اقتصادي، لكنهما تضافرا فيما بينهما بطريقةٍ لم أستطع معها تمييز أين يبدأ واحد، وأين ينتهي الآخر. لم يهاتفني الناشر، رغم أنَّ صمته لم يكن مطمئنًا. ثمَّة أناس يعرفون استخدام الصمت كتهديد. على أي حال، دائمًا كنت أبدأ قراءة الجريدة من صفحات الثقافة على أمل أن أرى إعلان كتاب «خطابات إلى أمي»؛ لأنَّ ذلك كان سيعني أنَّه رفض رسالتي (وربما يستعيد العربون).

ذات صباح، وضجرًا من استنزافي أمام الورق الأبيض، وقد تلونت حوافه دون قصد بالأسود من القلم الجاف، حتى بدا كإعلان عن نعي، خرجتُ إلى الشارع، وأخذت تاكسي لأتوجه إلى المقابر. كان أحد أيام يناير شديدة البرودة، لكنه كان مشمسًا كذلك. وعلى النواصي كنت أشاهد أثر ثلج الليلة الماضية، وعشب الحدائق لا

يزال مغطًّى بكفنٍ رقيق من الثلج نفسه، وقد بدأ في الذوبان حين دخلتُ حَرَم المقابر. توجهتُ مباشرةً إلى منطقة فرن المحرقة، وفي تلك اللحظات كانوا انتهوا في التو من حرق جثة وسط جو هائل من البرودة، إن صحَّ استخدام هذه الكلمة، وأظنُّ أنَّه لا يصحُّ، ومن هناك اتجهتُ إلى بناية المشكاوات.

كانت عبارة عن نوعٍ من السفن، أو الثلاجة الصناعية، إذ ما إن دخلتُ حتى انخفضتْ الحرارة درجاتٍ كثيرة حتى أنَّ البرد يغلّفك فورًا كتأجُّج عكسي. كانت المشكاوات معروضة على طول الجدران العالية بطريقةٍ تجعل المكان يشبه مخزنًا. للحظةٍ تخيلتُ أنَّ داخل كلِّ مشكاة حذاءً بدلًا من الرماد؛ حذاء رجل، حذاء امرأة، حذاءً بكعب عالٍ، حذاءً شتويًّا، حذاءً صيفيًّا، وربما فردة بوت كذلك، وفردة شبشب، كنت قد زرتُ قبل أشهر مصنعًا للأحذية، ووجدت عدة تشابهاتٍ بين هذا المكان وذاك.

بذلتُ بعض الجهد حتى أجد مِشكاتكِ، يا أمي، إذ لم أكن قد عدتُ منذ حرقكِ، وقد مرَّت خمس أو ست سنوات، وربما سبع. ولا كنت تحققتُ من أنَّهم وضعوا شاهد قبرٍ صغيرًا، كلفتُ به عامل رخام من المنطقة، لكنه كان هناك يحمل اسمكِ وتاريخين يحددان قوسَيّ حياتكِ. لم يكن ثمَّة أحد داخل السفينة. أنا وحدي، أحترق وسط ذاك البرد، رفعتُ ياقة الجاكتة، إذ ليس عندي معطف، ولا كان عندي قط، يا أمي، رغم أهمية اجتماعية توليها للمعاطف،

وشعرت حينئذٍ بشيءٍ من الهجران، بشيءٍ من اليتم، فهربت مني ثلاث دمعات أو أربع نزلت مجمّدة على ذقني، وهربتُ إلى الفراغ.

رغم كلِّ شيء، لم أفقد كامل قدرتي على التفكير، وحينها لاحظتُ أنَّ ضربة واحدة كافية لتكسير شاهد القبر، واستعادة رمادكِ دون الحاجة إلى الدخول في أي إجراء بيروقراطي. لم يكن ثمَّة أحجار حولي، لكني عثرتُ على مجرفة بنّاء، وبدت لي يدها، ذات المقبض الحديدي، كافية. سددتُ ضربةً أولى شديدة الخجل، تلتها أخرى أشد قوة، لكنها أيضًا لم تؤدِّ الغرض، وفي الثالثة كُسِرت البلاطة، وكانت هزيلة وباردة مثل طبقة ثلجية فوق بِركة ماء، سحبتُ بقية الشاهد بيدَي فسقط على الأرض بصخبٍ مبالغ فيه، أو هذا ما بدا لي، واصطدم بجدارٍ من الحجر المفرَّغ، كان أحد العمال، أتذكر ذلك الآن، قد أقامه يوم الحرق لحماية المشكاة. لم يكن صعبًا تنزيله، لكني جرحتُ بسبب تسرُّعي إصبعًا، إصبع الخنصر باليد اليمنى، واستمرَّ بها ألمٌ متكرر، «لازمة» هكذا سمّيته، إذ كان الألم يُعاد بتكرار لازمة في قصيدة، وكما نقول أحيانًا عن أغنياتٍ ما لا أعرف منها إلا اللازمة، يمكن أن أقول إنِّي لا أعرف عن يدي اليمنى إلا ألمًا روتينيًّا يتكرر منذ ذلك الحين بين مقطعٍ وآخر من حياتي.

ما إن أنزلتُ الحجر، والوعاء في متناول يدي، شعرتُ بلحظة رعب حين فكرتُ أنَّ ما سأحمله جريمة، رغم أنَّه رماد أمي، وربما بسبب ذلك. كنت في النهاية، أنتهِك مقبرة، أدنس مكانًا يعدّ مقدَّسًا. في فترةٍ وجيزة غدوتُ تاجرًا في المال الأسود ونبَّاشَ قبور. كلُّ

ذلك بطريقةٍ مجانية، كما نفعل أغلب الأشياء. كان الخوف نفسه مما ساعدني على تناول الوعاء المجمّد بالمناسبة، والخروج به من المكان، وفي منطقة فرن الحرق، على بُعد أمتارٍ قليلة من مكاني، كان ثمّة مجموعة صغيرة من الأفراد رافعةً ياقات المعاطف، وبدلًا من رفع السجائر إلى شفاههم، كانوا يميلون برؤوسهم ليُدخِّنوا، منكمشين ليحموا أنفسهم من البرد، أو من الألم. رأيتُ على يميني شجرة صغيرة مطوقة أوراقها بشريطٍ من ندًى مجمّدٍ يذكّرنا بالسكر على الفواكه المسكّرة، تحسرتُ مرة أخرى لافتقاري إلى معطف، إذ قطعة ملابس بهذه الطبيعة كانت لتساعدني على إخفاء الوعاء. أخيرًا منحني الخوف حلًّا، فعبرتُ المؤسسة كاملةً وخرجت إلى الشارع، وهو طريق سريع بالأدق، دون أن ألفت نظر أحد. اضطررتُ إلى السير كثيرًا لأبلغ منطقة تتوافر فيها تاكسيات، وفي الأثناء كنتُ أبدّل الوعاء من ذراعٍ إلى ذراع، إذ كانت برودته تجتاز نسيج الجاكتة والقميص لتبلغ جلدي مثل مكواة حديدية على نارٍ حيّة.

ـ جئتُ لأخذ رماد أمي، قلت لسائق التاكسي بدراماتيكيةٍ ما، إذ كنت أحتاج إلى تفريغ شعوري بالهجران.

ـ هل يضايقك أن أدخن؟ سألني كأنَّ سيرة الرماد فتحت شهية التدخين.

أعطاني سيجارة وأخذتها رغم أنّي توقفت عن التدخين منذ خمس أو ست سنوات، منذ وفاتكِ تقريبًا. كان الراديو يذيع وصفة لطبخة، وتحققتُ بيأسٍ من أنَّ عُصارة المعدة تتراقص، لم أعرف

إن كان جوعي يتجاوز حزني، بنفس درجة عجزي، منذ دقائق، عن تحديد إن كان خوفي أكبر من البرد. في بعض الأحيان تلغي الأحاسيس المعنوية الأحاسيس الجسدية، لكن في أحيان أخرى تنتصر الجسدية في هذه المعركة الغريبة بين الجسد والروح. دُختُ قليلًا من أثر التدخين، لكنه أخمد جوعي، وعمومًا كانت سلواه أكبر من الاستياء الناتج عنه.

في البيت، وضعتُ الوعاء على المكتب، وبجانبه ظرف فلوس جلب لي رعبًا يطوّقني. الظرف، مع مرور الأيام، اكتسب صفة الكفن، وبات مرعبًا أن ألمسه، إذ بدت الفلوس داخله مكسوة بملمس اللحم، ومنتقلًا من شيءٍ إلى شيء، ومنهما إلى كشكولي الفارغ، وقد بدا كذلك مثل كفنٍ يلف جسد كتابتي، ملأني الشعور بالذنب، يا أمي. ليس الذنب ناحيتكِ فحسب، بل ناحية نفسي، فكلُّ ما في حياتي فعلته بشكلٍ مرتجل، أحمق، وبالطريقة نفسها استعدتُ رمادكِ والتزمتُ بكتابة هذه الرسالة. ربما لو كنت أكملت الإجراءات البيروقراطية لأدخل المقابر قانونًا، ولو كنت وقعت عقدًا عاديًّا مع الناشر، دون مبلغ نقديّ وفوريّ، لكنت استطعت أيضًا كتابة رسالة عادية. المسألة ليست كذلك فعلَ شيءٍ فريد، إنَّه محض عمل بالتكليف، مثل أعمالٍ أخرى نقبل بها من أجل لقمة العيش. لا أعرف لماذا لم يكفني المال قط، ولقد عانيتِ كثيرًا في حياتكِ لهذا السبب. دائمًا ما أطلب من الكتابة أن تمنحني أيضًا درجة من القلق، لم أرضَ قط بدفع الإيجار والخبز والسجائر (الآن السجائر

مرة أخرى)، والكحول، والبغايا، وإنّما حاولت أن أحصل من عملي أيضًا على كميات من الندم، لتمثل في الوقت نفسه محركًا لمواصلة الكتابة، دائمًا ما كانت الكتابة والندم دائرة مغلقة، كلٌّ منهما يتغذى على الآخر، وكلاهما يتغذّى عليّ. لقد طلبتُ الفلوس نقدًا لأندم لاحقًا؛ إذ كنت فكرتُ في إنفاقه في نزق جنسي، في نقائص جنسية، بالأدق، لو وضعنا في الحُسبان ميولي الجنسية، وفكرتُ أنّ فوائد البغاء يجب أن يعاد استثمارها في البغاء، حينئذٍ رنّ الهاتف.

ـ ما أخبار الرسالة؟ سأل الناشر من الجانب الآخر.

ـ أعمل فيها، أعطني عدة أيام أخرى.

ـ أسبوع. لا ينقصنا إلا رسالتك، لكن لو تفضّل أن تعيد لي الفلوس ـ أضاف بازدراءٍ ما ـ فالأمران سيان، افعل ما تريد.

نزلتُ إلى بار قريب وتناولتُ ستدوتش، اشتريت علبة سجائر، وعُدت إلى البيت مستعدًا لكتابة الرسالة مرة واحدة، لكنّ دائرة الندم والكتابة ثُقِبت في لحظةٍ ما، لم أستطع كتابة جملتين متصلتين. وفي منتصف المساء، أزلتُ ختم الوعاء الهش، وأخذت قبضة من رمادكِ احتفظتُ بها في جيب الجاكتة. ما زلتُ أذكر ملمسه المغبرّ. من التراب وإلى التراب تعود، هكذا كان الكاهن يقول لنا في أربعاء الرماد حين كنت أرتاد الكنيسة ممسكًا يدكِ، ويرسمنا بالصليب الرمادي على جبهتينا، أيضًا على طريقة العربون، ثم فتحتُ الظرف وسحبتُ عدة أوراق مالية. مضيت إلى الشارع بباقة الجاكتة المرفوعة، وبحثتُ عن بَغيّ ناضجة أحاول منذ شهور التخلص منها،

لم أضطر إلى السير طويلًا، إذ أسكن في حيّ يُمارس فيه البغاء. لا بد أنّك تفكرينَ أنَّ الكاتب يجب أن يعيشَ أقرب من المكتبة الوطنية منه إلى بيوت البغاء، وهذا صحيح، لكن يحدث أنَّ بيوت البغاء قريبة جدًّا من المكتبة الوطنية، ولا بدّ أنَّ ثمَّة علاقة بين البغايا والكتب.

كانت المرأة في ناصيتها، ميتة من البرد، وابتهجتْ لرؤيتي.

ـ خدمتي اليوم مجانًا، بشرط العثور على عذر لأنصرف إلى البيت.

فهمتُها لأنّي كذلك أبحث دومًا عن ذريعة لتجنب الكتابة، قد أكتب مجانًا في أيام كثيرة بشرط ألا أكتب، لكننا ككُتّاب لم نحلّ معضلة كيف نكتبُ دون أن نكتب، حتى لو كان مجانًا. هذه ميزة البغايا، أنهنَّ نعم قادرات على فعل البغاء، وأحيانًا يهادونك بما لا يفعلنه. وبالفعل، حين وصلنا إلى شقتها أدركتُ أننا لا نرغب في شيءٍ إلا الاضطجاع على ظهرينا على السرير، وتدخين سيجارة وراء أخرى، ونحن نتأمل السقف، ويرى كلٌّ منا في ظلاله أشكال تأنيب الضمير.

ـ ألا تريد شيئًا؟ قالت وهي تتغطى لتواجه البرد، وذكّرني تلامُس قدمينا بملمس الوعاء المجمّد حين أخرجته من المشكاة.

ـ لا شيء، لكني سأدفع لكِ، لا تقلقي، لقد حصلتُ على قليلٍ من المال الأسود، لن تضطري إلى إعلام الضرائب.

ـ هل أنت مجنون؟ أنا لا أدفع الضرائب.

كنت أتمنّى لو تقاسمنا السيجارة، كما يفعل العشاق في الأفلام، لكنها أصرّت أن يدخّن كلُّ واحدٍ سيجارته؛ لأنّها تخاف، مثل كلِّ البغايا، من نَفَس الزبائن (ناشري مثلها: لذلك يفتح ظهر الكرسي للوراء)، كان الرماد يسقط من سيجارتي كلَّ حين بين الملاءة، وفي لحظة محددة انفجرتُ في البكاء:

ـ ماذا بك الآن؟ سألتْ.

حكيتُ لها أنّي في ذاك الصباح نفسه قد استعدتُ رماد أمي، ولم أكن أعرف ماذا أفعل به، رغم أنّ أمي كانت تحب أن أُلقيه في البحر.

ـ ألقِه في الحمّام، أناس كثيرون يفعلون ذلك. عاجلًا أم آجلًا سيصل إلى البحر. العام الماضي، كنت في البحر المتوسط، وكان يبدو مثل المجاري.

كنتُ منفعلًا، وبالتالي لم يرقَ لي أن تقول ذلك، لكني لم أغضب. بطريقةٍ ما، بدت لي علاقتها بي أشد نبلًا من علاقتي بناشري.

ـ أعرف كاتبًا آخر يبكي كذلك بلا سبب. أنتم هشّون.

ـ المسألة ليست أننا هشّون، قلت لها. بل الحياة مدينة لنا بشيءٍ بحيث كلّما مرَّ الوقت نفقد الأمل في تحصيله.

لكننا هشّون أمام مشاكلهنَّ، مشاكل البغايا، بالتأكيد. كنت أعرف قصتها، لكنها كررت حكيها لتقوّض ألمي، كانت ابنتها تعيش في فرنسا، وتدرس صيدلة.

ـ ولا تعرف ما عملي، تظنُّ أنِّي أبيع مجوهرات، أترى. أعتقد أنَّ هذه مشكلة، وليس رماد أمك. لو كنت كاتبة، لتحدثتُ عن أشياء واقعية، مثل واقع أن تدرس ابنة في فرنسا، وهي تعتقد أنَّ أمها تبيع مجوهرات، لقد اضطررت إلى أن أتعلم الفارق بين الياقوت والألماس، كما ترى، هل تعرف الفارق بينهما؟

قلت لها لا، وأعطتني درسًا عن المعادن الكريستالية والأحجار الكريمة دون أن تكفَّ عن تأمُّل السقف. في لحظةٍ ما، لكي تشير إلى الياقوت على ما أظن، استخدمتْ كلمة جمرة، أو جُميرة، واستمتعت بنطقها كأنَّها تمضغ كراميل.

ـ تقال بالطريقتين، وضَحتْ، رغم أنِّي أفضّل جمرة.

ـ تبدو اسم مرض، لو قال لي أحد إنَّ فلانًا مات بالجمرة، أو بالجُميرة، سأصدقه.

ـ لكنه ليس مرضًا، كما ترى. لا تمرر اليوم.

ظللنا، في النهاية، لساعتين، نتبادل حكي المشاكل، ودائمًا كنت أخسر أنا. بالإضافة، أهانتني طريقتها في التوثيق حول عالم المجوهرات لتخدع ابنتها، وأنا لم أكن قد بحثتُ قط لأكتب رواية ذات صدق فني. كانت امرأة شريفة، أريد قول ذلك، وفجأة، أدركت مغزى كلمة شرف، وفهمتُ لماذا أدمنت بشكلٍ كبير هذه البغيّ، ولا أعرف إن قلت لكِ أم لا، يا أمي، فاسمها ماريسول أو هكذا تُسمِّي نفسها، مثل اسمكِ.

بعد ساعتين، وربما ثلاث، نامت ماريسول ونهضتُ أنا، تركت لها الفلوس المعتادة فوق الطاولة، وتحت المزهرية، كما أفعل كلّ مرة، ثم أخذت من جيب الجاكتة رمادًا كنت أخرجته من الوعاء لألقيه في حوض الحمّام، وفتحت الحنفية ليهرب عبر المواسير. فكرتُ أنّي في الأيام التالية سأتخلى بهذه الطريقة عن الرماد والمال الأسود، وحين أغدو حرًّا من هذين الشيئين، ربما أستطيع العودة إلى العمل، إلى بيع كتابتي بشرفٍ كما تبيع تلك البغيّ جسدها.

في اليوم التالي، في وقت الضحى، هاتفوني من المقابر، أخبرني موظف حزين أنّ ثمّة مَن انتهك مشكاة أمي، وأنّ رمادها قد اختفى. كان أول رد فعل أن أقول له ألا يشغل باله، فالرماد في نهاية المطاف لن يذهب إلى أي مكان، لكنني خشيتُ أن تتوجه الشكوك ناحيتي، وبالتالي حين دعوني لعمل محضر يكمل محضر مسؤولي المقابر، لم أجد أي سببٍ للرفض.

في ذاك المساء، ورغم كرهي للإجراءات الرسمية، اضطررت للذهاب إلى قسم الشرطة لأملأ أوراقًا، لا أعرف إن كان وجهي وجه مجرم أم كاتبٍ أم بَغيّ، ما حدث أنّ الشرطي المسؤول عن المحضر كان يرمقني شزرًا بنظراتٍ تركت في نفسي أثرها. بالإضافة، كنت أحمل في جيب الجاكتة حفنة من رماد كنت أخذته من الوعاء قبل الخروج من البيت، إذ فكرت في مقابلة ماريسول بعدها، وكذلك جزءًا من المال الأسود، وفكرت أنّهم لو فتشوني فأنا ضائع. في النهاية، ولأنّ الشرطي بدأ يواجهني بأسئلة عددتها وقحة، جمّعت

شجاعتي من هشاشتي، وقلت له بعجرفةٍ ما إنّي أنا الضحية ولست الجاني.

أومأ الشرطي بإيماءة احتقار، وأنهى المحضر، وأمرني (أمرني، هي الكلمة الدقيقة) بالتوقيع في عدة أماكن بالمحضر. خرجتُ من قسم الشرطة مهانًا، لكني تنفّست براحةٍ كذلك، إذ خلال امتثالي أمامه أدخلت يدي عدة مرات، دون أن أنتبه، في جيب الجاكتة، وأخرجتها بالرماد ملتصقًا بالأصابع. أعتقد أني تركت أثرًا منكِ، يا أمي، في وسط المدينة، شيئًا من بارود إن وضعنا في الحُسبان هذا النوع من خوفي، لذلك قررتُ أن أعطي للبغيّ مالًا بزيادة، ورمادًا بزيادة؛ لأتخلص منه في أسرع وقت ممكن.

خلال عدة أيام أخرى، كان رمادكِ قد اختفى في مصرف حمّام ماريسول، والمال الأسود في سوتيانها، ولأنَّ القاتل المحترف يخلّف وراءه دائمًا أثرًا لجريمته، تبقت بقايا في جيب الجاكت وفي مكتبي، حيث لا يزال ظرف، أو كفن، احتوى مالًا أسود كنت تلقيته في مقابل كتابة هذه الرسالة، لكني لم أرتدِ هذه الجاكتة مرة أخرى، يا أمي، وحين أفتح الدولاب وأراها معلقة على المشجب بملمح الهزيمة المرسوم على كلِّ وجودها، تبدو كجاكتة أرمل، جاكتة حين كنت أرملكِ، بدلًا من أن أكون يتيمكِ.

تخليت كذلك عن ماريسول، رغم أنّي لم أتخلَّ عن التدخين بعد، ولا تزال نكهته تذكرني بنكهة صدرها. غير أنَّ الشيء الأهم أنّي أكتب، أنّي عُدت إلى الكتابة بإيقاع سيجارتين في الصفحة

تقريبًا، أحسن من العدم. ارقدي في سلام، وأعطيني نفحة، ابنكِ الذي يحبكِ، ألبارو.

ملحوظة: رفض ناشري هذه الرسالة، يا أمي. يقول إنَّه لا يراها مناسبة لكتاب *خطاباتٍ إلى الأم*، ويعده الآن، ولا بدَّ سيكون كتابًا نابضًا بالمشاعر الطيبة، ورفض كما هو منطقي، استرداد عربون دفعه، إذ هو مَن خالف الاتفاق الآن، ويطلب مني أن أعمل بكلِّ جدية في روايتي، حتى يضمها بين أعمال الربيع الجديدة، كان ذلك مثل أن يرد لي أحد رمادكِ. وبالفعل، أظنُّ أنِّي سأحرق هذه الرسالة لأحتفظ برمادها في وعاء شمِل من قبل رمادكِ، ترابٌ أنتَ، أنتَ أيضًا، يا جسد الكتابة، وإلى التراب تعود.

قرأت الرسالة ورددتُ على إيميل ألبارو بإيميل مقتضب جدًّا:
«عزيزي ألبارو: يسعدني أنّك على ما يرام، لقد قمتُ ببعض التحقيقات، وأظن أنّي على وشك التعرّف إلى الراهبة السابقة. بدت لي *رسالة إلى أمي* مؤثرة، لكنها جارحة بعض الشيء: ليس غريبًا أن يرفضها الناشر: الناشرون كائنات بشرية، سأرى ما يمكن أن أفعله لنشرها في الجريدة. عناق».

قرأت *الرسالة* مرتين أُخريين، مدهوشًا من هذا المزج بين الواقع والخيال، وأدركتُ أنّ كلّ كتابة هي مزج شيطاني بين الشيئين، بغض النظر عن التصنيف الملصوق على عنوانها. كانت مادة تحقيقاتي خيالية مثل *رسالة إلى أمي*، أو أنّ مادة *رسالة إلى أمي* كانت واقعية مثل تحقيقاتي. يمكن أن نستخدم أيًّا من الشكلين؛ لأنّ كلًّا منهما أكذوبة وحقيقة في الوقت ذاته. يا إلهي! لماذا، إذن، الإصرار على أن أكتب رواية، وقد نشرتُ بالفعل أكاذيبَ كثيرة في تحقيقاتي. بالإضافة، فاجأتني كمية الغل في فتًى شاب لم تكن حياته أسوأ ما يكون، وبدا لي أنّ فِعل إرسال الرسالة لي على بساطته يعني أنّه يحمّلني مسؤولية تعاسته. كأنه يقول لي، أو هكذا شعرت به على الأقل، إنّي مضطرّ لإعادة شيءٍ يداين به الحياة.

بعد يومين اتصلت على تليفون فينا، لكنه كان مغلقًا دائمًا. تركت لها عدة رسائل لم أتلقَّ عليها أي رد. في النهاية توجَّهتُ إلى بيتها ببراغ بعد الغداء، وفتحت لي ماريا خوسيه الباب.

ـ لوث مريضة، قالت.

عبرتُ الممر القصير مداريًا استيائي من رائحةٍ كريهة، ووصلت إلى الصالون، ثم غرفة النوم. أبعدتْ ماريا خوسيه مدفأة بعجل كانت تعوق الخطوة إلى الباب؛ لأستطيع الدخول، لكني ظللت عند العتبة خوفًا، كأنَّ لوث أكاسو ستعديني بشيء. كان وجهها يطلُّ من بين الملاءات بإيماءة تساؤل يميزها، لكنَّ تعبيرها يسأل فحسب إن كانت ستموت. نظرت إليّ، مالت بوجهها وغرقت في النوم لثوانٍ. كانت تروح وتجيء بين الصحو والمنام كأنَّها تتأرجح بين حالتين، وعلى الكومودينو ثمَّة زجاجات أدوية وكوب ماء، كان الشيش مسدولًا رغم أنَّ الضوء في الخارج كان بدأ في الخفوت.

ـ ماذا بها؟ سألتُ.

ـ التهاب رئوي.

ـ هل زارها الطبيب؟

ـ نعم، ونحن في انتظار عربة الإسعاف لتحملها إلى المستشفى.

كان الالتهاب الرئوي قد قتل في السنوات الأخيرة عدة أشخاص من محيطي بعد أن أصابهم الإيدز قبلها، فكَرتُ حينئذٍ أنَّ هذا مرض لوث أكاسو الحقيقي، وإن كانت ماريا خوسيه لم تخبرني، رغم ثرثرتها، فلأنَّ ذلك يتعلق بمفهومها الغريب حول حفظ السر. ربما

كانت محتاطة فحسب فيما يخصُّ الواقع. من ناحية أخرى، البغايا أكثر الجماعات عرضة للإصابة بالإيدز، مما يولّد ذلك سؤالًا جديدًا معلقًا في الهواء.

ـ الأفضل أن تبعدي المدفأة؛ لأنّها تحرق الأوكسيجين وتقلل الهواء.

أبعدتها ماريا خوسيه وحملتها إلى مكانها المعتاد في الصالون، حيث جلسنا في انتظار مجيء الإسعاف. كانت لوث، المتأرجحة بين الصحو والمنام، قد بقيت في جانب المنام، هكذا تحدثنا بصوتٍ خفيض كأنَّ النائمة طفلة أكثر منها مريضة.

ـ اخلعي العُصابة، طلبتُ منها إذ بدا لي أنَّ الظلام في المحيط مفرط.

ـ لا، أريد أن أعاين كلَّ شيءٍ بالجانب الأيسر.

ـ يا للعبث!

ـ هل يبدو لك عبثًا؟

ـ لا أعرف. الآن نعم.

ـ ولا تصدق كذلك أنّه يمكن كتابة كتاب أيسر؟

ـ لا أعرف ما مزايا كتاب أيسر.

ـ هل تعتقد أنك صحفي استقصائي مهم؟

ـ لستُ سيئًا.

ـ لستَ سيئًا؛ لأنك تكتب الأشياء المتوقعة، ترى الواقع من الجانب الأيمن، وترتبه من هذا الجانب نفسه، تمنح القراء

ما ينتظرونه منك، ويدفعون لك مقابل ذلك. طيب، أنت لا تخدع أحدًا وتحصّل التعريفة المناسبة لمنتج تبيعه، لكن تخيل أنَّ كلَّ ما كتبته بالجانب الأيمن قد كتبته بالجانب الأيسر. حاول رؤية ما يحدث هنا والآن، بهذا الجانب. لا تشعر بالشفقة على لوث، كما علّموك الشفقة على المرضى. بدلًا من ذلك، تضامن معها من جانب تعرفه أقل، كُن أيسر لبرهة، وسترى كيف يضاء كلُّ شيء.

أظنُّ أنّي حدّقتُ فيها مأخوذًا بعض الشيء.

ـ لا أعرف، قلتُ.

ـ غمّض عينك اليمنى، أمرتني.

غمّضتُ عيني اليمنى، وعند رؤيتها من خلال نفقِ كوّنته عيني اليسرى أدركتُ أن ما يفصلني عن ماريا خوسيه هو أداة بالذات أنظر إليها بها، العين، بنفس طريقة الميكروسكوب إذ يسمح للباحث بالدخول إلى خلية ويبعده عنها، كانت هناك، بجانبي، لكنها مثل ظاهرة يمكن ملاحظتها. لن أستطيع أبدًا الذوبان فيها، ولا هي فيَّ؛ لأننا في جانبين متواجهين من العدسة. شعرتُ بأنَّ كلَّ ثغرات حياتي، وقد رحت أغطيها ببأس يخرّق الواقع، كما نغطي جرحًا في معركة، كانت تتفرّغ لتمتلئ الآن بقطع من اللاواقع، وأدركتُ أنَّ الخيالي كان كلَّ شيء. كان الشعور بذلكَ راحة، وأدركتُ أنّي لو تحتم عليَّ كتابة تحقيق حول أولئك النسوة فلن يكون للتحقق مما إذا كانت لوث بَغيّ أم موظفة، أو أنّها مريضة اكتئاب أو مصابة بالإيدز،

ولا إن كانت ماريا خوسيه ابنتها من بائع سمك أم من ميكانيكي. لقد تداعت كلُّ معاييري القيمية، أيًا كانت، ولاحت أمام عيني اليسرى معايير مختلفة. أعرف أنّي قد عشتُ حياةً شريفة، لكنها تافهة، ملأى بإثاراتٍ متفقٍ عليها، يديرها آخر ليس أنا، وأدركتُ أنّه في تطلُّع ماريا خوسيه لكتابة كتاب أيسر ثمّة مشروع استقلالي يساوي كلَّ إنجازاتي، ولم يبدُ لي أنَّ العُصابة تُعتِمها؛ إذ عند تأمُّلها بالعين اليسرى، وبمجهودٍ ما، رأيتها مضيئةً بالكامل وشهية، تخيلتُ مضاجعتها بالعُصابة على عين كلِّ منا اليمنى، وبذراع هذا الجانب مربوطًا بالظهر. لا بدّ سنتضاجع بجنون، كما يجب أن نكتب، وكما يجب أن نعيش في الوقت نفسه. ربما تكون المهارة، المقدّرة بزيادة في مهنة الصحافة، سيئة لكلِّ شيء. أدركتُ خطأً تعظيم التجربة، وبدا لي أنّها بداية جيدة لرواية عبارة «كان لديّ حوض سمك في الصالة».

لكني في أثناء ذلك كله، أدركتُ أنّي تائه لأبدأ حياة على الجانب الآخر من العدسة، الجانب الأيسر. لم تكن مسألة أنّها موجهة إلى ألبارو أبريل فحسب، وإنّما لم يكن بوسعنا، من مسافة نتواصل من خلالها، أن نفعل إلا إشارات دخانية.

ـ راقت لي عبارة «كان لديّ حوض سمك في الصالة»، قلت لها وأنا أحاول ألا أرفع جفني، رغم أنَّ العين بدأت تدمع.

ـ شكرًا، لكن ما كان يجب أن تروق لك، إنّها مُزحة أستخدمها لأريك مَن يعاملون الأدب بجديةٍ مفرطة.

ـ إذن راقت لي.

ـ شر ما فعلت.

ـ بالمناسبة، ثمَّة راهبة جعلت ألبارو أبريل يظنُّ أنَّه ابن لوث، هل كنتِ أنتِ؟

ـ نعم، قالت وهي تنظر لي بعينها الوحيدة، أنا هذه الراهبة. كما سترى، لا يكفي إغلاق العين اليمنى لإغلاق هذا الجانب. لا تزال تريد التحقق من أشياء لا تهم إلا التفكير التقليدي. جانبك الأيسر لن يهتم إن كنت أنا هذه الراهبة، بل سيبدو له منطقيًا. من جانبك الأيسر، كما من جانبي كذلك، أي شيءٍ يساهم في جذب ألبارو أبريل إليَّ سيكون مبررًا. بالفعل، جانبك الأيسر لا بدَّ أنَّه يعرف أنك جزء من الطُعم أيضًا، مهمتك الوحيدة في هذه الحكاية المساهمة في لقائي أنا وألبارو.

بدا لي معقولًا بالفعل من جانبي الأيسر، لكن في تلك اللحظة رنَّ جرس الباب، وفتحتُ عيني اليمنى، واستسلمت لواقع أعرفه كما هو. وكان الواقع ممرضَين وطبيبًا، أظنُّ أنه شابٌّ جدًّا، تفاهمت معه ماريا خوسيه دون مشاكل، ما كان بوسعي أن أفعل ذلك. لاحقًا، فيما كانوا يسحبون لوث على سريرٍ متحرك، وتبدو مخدرة تمامًا، أغمضتُ عينًا يمنى لبرهة لأرى كلَّ شيءٍ من جانب لا يؤلمني، لكنها لم تكن مسألة ألم، وإنَّما مسألة معنى.

قبل أن أخرج من الصالة تطلعتُ من النافذة بالعين اليسرى، ورأيتُ شارعًا من براغ كنت عبرتُ به في مرة وحيدة كنت هناك. وددتُ لو تجولت به مجددًا، هذه المرة بجانبي الأيسر، لكني عند الخروج استحال هذا الشارع نفسه شارعًا من مدريد. راحت عربة الإسعاف تعوي، وهي تحمل داخلها لوث أكاسو وماريا خوسيه صوب شارع لوبِث أويوس، سرتُ لبرهة بلا قِبلة بعين يمنى مغمضة. كان الأثر غريبًا جدًّا: كان يبدو أنَّ الشوارع تمرُّ بي بدلًا من أن أمُر أنا بالشوارع، وكان الناس يشكّلون جزءًا من لوحة ننزلق بها، وفيها الأشخاص ذوو العينين، للغرابة، يرون أقل من ذوي العين الواحدة. كانت العين المغمضة تؤلمني من الضغط عليها، وعبر ضم الجفن المضغوط تراصت دموع بردت، وهي تنزل على وجهي، غير أنّي ظللت دون فتحها، بإرادة فهم شيء، وحينئذٍ أبصرتُ الشارع الضيق مثل ممر، وكلّما تقدمت فيه كنت أدرك الأجزاء المختلفة من حياتي. لم تكن حياة خاطئة بأكملها من منطق الجانب الأيمن، لكن من منطق الجانب الأيسر لم تكن المسألة أنَّها خاطئة، المسألة أنَّها لم تكن موجودة.

عند وصولي إلى البيت، جلستُ أمام الكمبيوتر، وفيما كان يفتح، فتحتُ عيني اليمنى لأستريح، وكانت راحة تشبه راحة عدم الرؤية. كان ثمَّة إيميل من المحرر المدير، كان يذكّرني بالتحقيق حول التبنّي، لكن دون أي اقتناع، قررتُ ألا أرد. وإيميل آخر من ابنتي، تقول إنَّ فالتر، خطيبها، استلطفني جدًّا، ولم تضف كلمة أخرى،

ولبساطتها بالتحديد انتبهت أنَّها صرخة نجدة لم أعرف أن أرد عليها بأي جانبٍ من الجانبين. الإيميل الثالث كان من ألبارو، قرأته بعين يسرى، كان يقول التالي: «أمي لا تردُّ على التليفون منذ يومين، لا في الساعة التي كنا نتواصل فيها، ولا في أي ساعةٍ أخرى. أخشى أن يكون قد وقع لها مكروه».

لحُسن الطالع، لم يذكر إيميلي السابق، إذ وصفتُ فيه «رسالة إلى أمي» بأنَّها شريرة. عند قراءة إيميله بالعين اليسرى أدركتُ أنه يكلّفني بمهمة التحقق مما حدث. قبِلتُ مصيري، وأجبته بألا يشغل باله، بأنِّي سأتحقق من الأمر بشكلٍ مناسب، دخلت في السرير ونمتُ بعينين مغمضتين.

في اليوم التالي، مبكرًا جدًّا، أخرجني التليفون من السرير، كان المحرر المدير، ولم يذكر التحقيق حول التبنّي، يطلب مني حضور عدة ندوات حول الصحافة والأدب ستعقد في برشلونة، كان يجب أن يحضرها صحفي آخر من الجريدة، لكنه مرض في الساعة الأخيرة. لم أستطع الرفض، وبعد ساعتين كنت في رحلة طيران داخلي محاولًا نسج أربع أفكار لأخرج من المزنق. في النهاية، تحدثتُ، دون ذكر مصادر، عن الأدب ابن الحرام والأدب الشرعي، مؤكدًا أنَّ الصحافة أدب مصنوع من وعي شرعي يفرض العمل بموادَ واقعية. قلت إنَّ سرد الصحفي لوقائع محقق منها غالبًا يمكن أن يجعل منه محض كاتب عدل، وأضفتُ أنَّ كاتب العدل هو الابن الحقيقي بامتياز: يصرّح كحقيقة، بتواطؤٍ اجتماعي، بشيءٍ يحدث عامةً داخل رأسه فحسب. حكيت أنَّه منذ سنوات، بعد التحاقي بالجريدة بقليل، كلّفني رئيس قسم الثقافة بالاتصال بأربعة أو خمسة كُتّاب لأسألهم لماذا يكتبون؛ لأرتجل من إجابتهم تحقيقًا. كان ذلك نبعًا لا ينضب في فترات الجفاف الإخباري، إذ كان الكُتّاب يقدمون إجاباتٍ عبقرية تسلّي الجمهور، أحد هؤلاء الكُتّاب حين هاتفته ردَّ عليَّ السؤال:

ـ ولماذا تكتب حضرتك؟

وفاجأني لأنَّي لم أكن واعيًا بأنَّي أكتب مثلي في ذلك مثل كثيرين من كُتّاب عدل يخلقون الواقع فيما يظنون أنَّهم يصدّقون عليه فحسب. بهذا المعنى، أكدت أنَّ الصحفي ابن شرعي، وأضفت

أنه، بالتالي، ابن عاهرة. قلت ذلك ليضحكوا، لكني كسبت عداوة زملائي، فاجتنبوني طوال الأيام، رغم أنّي حضرتُ بانتظامٍ كلَّ الندوات وشاركتُ لأكبَر العدد، في مائدتين مستديرتين.

بين مداخلة وأخرى، كنت أتصل على بيت لوث أكاسو وتليفونها المحمول، دون رد. وفي ليلتي الأخيرة ببرشلونة قرأت بتركيز قسم الاتصالات بالجريدة، وترددتُ في الاتفاق على بغيّ، كانت تبهرني فكرة أنّي أستطيع فعل ذلك وعدمه بالقوة نفسها، دون أن يغيّر أيٌّ من الفعلين في سير الأمور، أمور حياتي أو حياة البَغيّ. أم سيغير؟ في النهاية لم أقرر؛ لأنَّ مَن أبحث عنها لم تكن موجودة في الإعلانات بحسب كلام هذه الجريدة.

حين عدت من برشلونة، في اليوم الثالث، كانت لوث أكاسو قد ماتت، ودفنوها، وبدفنها دُفِنت كذلك فينا، وإيبا، وتاتيانا، وبقية أسماء استخدمتها لتزييف (تزييف؟) كينونتها كبغيّ.

جاءني الخبر من ماريا خوسيه، من عينها اليسرى، حين اقتربتُ من بيت براغ لأرى كيف تسير الأمور.

ـ دفنّاها بالأمس، قالت.

خطر لي أن أسألها إن كانت قد تواصلت مع عائلتها، فحدّقت بي كأنّي مجنون. راودتني فكرة بائسة بأنّها بناءً على طريقة إقامتها معها، تتطلع إلى الاستحواذ على البيت، لكنَّ هذا البؤس ربما لا يتجاوز حدود رأسي، كيف سأعرف ذلك. من الجانب الأيمن كلُّ شيءٍ بائس، منحط، متوقع، فاسد. يا إلهي! لقد كانت حياتي شديدة

الجمال في بؤسها، ولمّا انتبهتُ لذلك، لهذا البؤس، وهذا الجمال المتجاورين في الوقت ذاته، عرفتُ أنَّ حياتي قد انتهت، أنّي بتُّ أنتمي إلى عالم آخر، مع أنّي لا أزال أتحرك بالقصور الذاتي في هذا العالم. لا أريدُ صُنع دراما: من المحتمل أن أعيش سنواتٍ طويلة، وأن أستمر في كسب عيشي بكلِّ راحة، بل وأن أحرز نجاحًا مهنيًّا أكبر مما أستحقه، لكنَّ كلَّ ذلك سيحدث لرجل منتهٍ، رجلٍ لم يكن محبوبًا في لحظاتٍ احتاج إلى الحب في حياته، لم يكن يتأملني بحسرة، بل بفضول أنثروبولوجي. لا يصح ذلك، يا ولد. حين كنت أحدث نفسي كان يروق لي أن أسميني «ولد»، رغم أنّي صرت سيدًا وبكلِّ المعاني، فمَن أخدعه بذلك.

فيما كانت ماريا خوسيه تتنقل من هنا إلى هناك ترتب أشياء أو العكس، وأفكر ببؤسٍ أنّها ربما تبحث عن مالٍ مختبئ، كنت أشمشم خفيةً، هكذا عثرتُ في أحد أدراج أثاث يشبه الكومودينو على تليفون لوث أكاسو المحمول، فخبّأته في جيبي؛ لأسمع كمهووس ما قالوه، ما قلناه، نحن الرجال، لبغيّ مزيفة أو حقيقية، مَن يدري. سألت ماريا خوسيه إن كانت دخلت الغرفة اليسرى أم لا، قالت لم تدخل، وأضافت أنّها ليست الساعة المناسبة للبلاغة.

لمّا عدتُ إلى البيت، جلستُ على كرسيّ الألماني المخصص لعلاج ألم القطنية، وأغمضتُ عينًا لأتخيل أنَّ جانبي الأيمن كلّه من الخشب. ما إن بلغت هذا الإيحاء، كان سهلًا أن أسافر إلى جانبي الأيسر، وكان مشكَلًا بالفعل من جغرافية دون خرائط، لم

أكن أحتاج إليها كذلك، إذ كانت الذاكرة تحفظ عن ظهر قلب ذاك المكان الطارد. ننحدر من الجانب الأيسر، ونهرب منه صوب الجانب الأيمن بحثًا عن وهم، أو تقييم. وبعد قليلٍ من دخولي الجانب الأيسر، اصطدمتُ بنسخةٍ هشة من ذاتي كنتُ غادرتها منذ زمنٍ على وعد بأن أعود إليها. في ذاك الزمن البعيد، كنا نسير، كلُّ واحدٍ منّا يتكئ على كتف الآخر، وكلانا كان حائرًا أمام عالم لا يُمكن فهمه، حينها انتبهتُ إلى أننا لن نصل إلى أي مكان، حينها قلت لها سأتقدم أنا لأمُدّني بحصيلة من الكلمات ستساعدنا على فهم الأشياء، وحين أتمتع بهذه الحصيلة سأعود إليها، لم أعد. والأسوأ من ذلك: نسيتها، والآن أعود لأجدها هشة وفاقدةً القدرة على الكلام، كان يمكن أن أعطيها كلَّ كلماتي، لكن لن تفيدها في شيء؛ لأنّها كلمات من الجانب الأيمن، وهي مخلوقة من الجانب الأيسر.

كلُّ خريف، منذ سنوات طويلة، أبدأ في دورة اللغة الإنجليزية، وأنصرف عنها في أعياد الميلاد. نتيجة ذلك نما في داخلي فرد أنجلوسكسوني بوسعه بالكاد أن يدافع عن نفسه في المطارات الدولية بأربع عبارات تفيده في معرفة أين الحمّام وأشياء أخرى قليلة.

أنا وهذا الرجل نتعلم الإنجليزية ونلتقي باستمرار، ما يعني صعوبة ألا يعيش أحدنا داخل الآخر. عادة يعيش هو في داخلي، لكني حين أسافر للخارج، أكون أنا مَن يلجأ إلى داخله، ومن هناك أتأمل

صعوباته. ليس سهلًا على الإطلاق التفاهم مع سائقي التاكسي ولا مع الجرسونات ووكلاء الوزارات بأربع كلمات بالإنجليزية. لذلك، حين نعود إلى البيت، يعود هو إلى أعماقه، وأنا أمسك الزمام باللغة الإسبانية. يستمر التعايش مع هذا الشيطان المسكين الأمي ـ كما أقول ـ حتى أعياد الميلاد، وهي أقصى فترة أحتملها لدراسة الإنجليزية، ثم ينام هو في عمق وعيي، كأنَّه في بياتٍ شتوي، وأنا نادرًا ما أستدعيه، إلا في حالات السفر، رغم أنِّي أحيانًا، حين أدخل السرير، أتذكره وأوقظه:

ـ Get up! get up

ـ What's happening?

يسألني مفزوعًا، فأقول له إنِّي أريد كوب ماء أو كوب لبن، أو أنَّ خيّاطي ثري، أو أي حماقة أخرى يمكن أن يفهمها، وبعد هذا الحوار المقتضب ندخل في النوم. هذا العام أجده أكثر نحافة من المعتاد. إن مُتُّ أنا قبله، لا أعرف كيف ستسير حياته: هكذا كان طفلًا عثرت عليه في جانبي الأيسر.

هاتفتُ ألبارو، وأخبرته بأنَّ لوث أكاسو قد ماتت وعزيته، لم يسألني عن تفاصيل الدفن، ولا إن كنت تحرّكت لنشر «رسالة إلى أمي» في الجريدة، لم يسألني عن أي شيء، كلُّ الأسئلة البائسة خطرت لي أنا.

ـ كانت تعيش مع فتاة تريد أن تتعرّف إليك، ولا تزال تقيم في بيتها.

اتفقنا أن نلتقي عند الناصية لنذهب معًا، وحين التقينا، تعانقنا مثل أبٍ يعانق ابنه في جنازة.

ـ يا ابني، قلت له بشكلٍ عبثي، وظلَّ بين ذراعَيَّ لفترةٍ أطول من العادي.

كانت ماريا خوسيه تنتظرنا بعُصابة على العين وبجانب أيمن ساكن عمليًّا. ما إن قدمت أحدهما للآخر، حتى أدركتُ أنَّ ألبارو أبريل مصيرها بالفعل؛ لأنَّ كليهما كان يعيش في الجانب نفسه من العدسة. لاحقًا، حين راحت هي إلى المطبخ لتعد القهوة، وجدت نفسي مضطرًّا إلى أن أشرح له أنَّها ليست عوراء ولا مشلولة، وإنَّما تغزو جانبها الأيسر بفكرة كتابة كتاب أيسر. كان ألبارو يتأمل كلَّ شيءٍ كأنَّه كان هناك في زمنٍ بعيد، ويحاول الآن تكييف الأشياء على مقياس ذاكرته، ثم شرع هو وماريا خوسيه في الكلام حول الأدب والحياة بطريقةٍ جعلتني مقصيًّا في الحال عن حوارهما. كنت أبدو كأبٍ متطفلٍ يصرُّ على معرفة علاقات ابنه.

ودَّعتهما دون أن يلتفتا إلى مغادرتي تقريبًا، وخرجتُ إلى الشارع بقناعة أنَّ حكايةً يُسرى قد وقعت لي، مغامرة من الجانب الأيسر، رغم أنِّي لا أستطيع حكيها إلا من الجانب الأيمن. بلا شك، كان ميزة: ثمَّة آخرون يقضون حياتهم دون معرفة بوجود هذا الجانب: أشخاصٌ لم يطفئوا قط مفتاح النور باليد اليسرى، لم يمرروا قط يدهم اليسرى على جباههم، لم ينجدوا أحدًا، ولا قتلوا أحدًا بهذه اليد، وعند بعث الموتى لن يتخيلوا أنفسهم على يسار الله. أنا في المقابل لا أستطيع أن أرى نفسي قط في جانبٍ آخر.

تلقيت طردًا بشرائط مسجلة على الماغنتوفون تجمع لقاءات لوث أكاسو وألبارو أبريل، وفي رسالة مرفقة، يشرح لي ألبارو أنَّه قرر عدم كتابة سيرة أمه، وأودعني كلَّ هذه المواد ليورّطني بطريقةٍ خيالية، لكن هل ثمَّة تورط أشد من التورط الخيالي؟ «لقد عرفتُ من ماريا خوسيه أنك أنت وأمي كنتما تلتقيان باستمرار في الفترة الأخيرة. أعترف لك أنّي في اللحظات الأولى شعرتُ بغيرة، لكني لم أعد أشعر بها. أظنُّ أنك كنت تحتاج إلى تصفية حسابات الماضي أكثر مني. وبالفعل، أنا لا أدين بشيءٍ للماضي؛ الماضي هو ما يدين لي. من ناحيةٍ أخرى، أودعك المادة وأكلّفك بمسؤوليتها، ولا يتعارض ذلك مع ما تجمعه حول التبنّي منذ فترة طويلة. ربما لو جمعتَ وثائقي مع وثائقك تحصل على شيءٍ مثير للاهتمام. أمّا بخصوص «رسالة إلى أمي»، رجاءً لا تتحرك لنشرها في الجريدة: لم تعد تهمني، احرقها أو ضمها إلى موادّ معك حول التبنّي. بعد كلِّ شيءٍ، لو كنت قرأتها بتركيز، فليست إلا تكرارًا».

هاتفته، واعترضت بطريقةٍ بلاغية.

إنَّها قصتك، قلت له.

ـ لا، لم تعد، كانت قصتي حين اعتقدتُ أنّي أريد كتابة رواية. الآن سأبذل كلَّ جهدي حتى لا أكتبها، وإحدى الطرق إلى ذلك أن تكتبها أنت. فلا نخدع أنفسنا: ثمَّة أناسٌ لديهم

سهولة للكتابة، أنا أتمتع بسهولةٍ لا تصدق كيلا أكتب، رغم أنّي حتى الآن لا أقبل ذلك.

ـ و»الحديقة»؟

ـ أنا نادم عليها؛ لو عاد الزمن لن أكتبها.

ـ اتفقنا، يا ابني، أضفتُ بطريقةٍ شبه بائسة.

لم أدرك كيف يتخلى شخصٌ عن مادة بهذا الثراء، رغم أنّي أنا نفسي كنت أرفض ما تمنحه لي ابنتي الحقيقية، وقد ظلت تراسلني بإيميلات في ظاهرها محايدة، ولم أكن أردُّ عليها.

استمعت للشرائط مرة وراء مرة، وحين تذكرتُ أنَّ ألبارو أبريل يدرّس في ورش أدبية بناء الشخصية، فكرتُ أنَّ لوث أكاسو ألهمته شخصية: مثل بينيلوبي، كانت تهدم بالليل هويةً تشيّدها بالنهار. بهذه الطريقة، كانت دائمًا الشخصية نفسها، ودائمًا شخصية مختلفة. هكذا نصنع أشخاصنا الحقيقيين: من تناقضٍ مستمر مع رغباتنا، نمنح حياتنا لما هو خيالي، ولا نبالي بما هو واقعي. أحببتُ مَن ليسوا لي، وكرهتُ مَن أردت أن أحبه، كما يقول بيثنتي ألكساندر كما أظنُّ، أحد شعراء قليلين قرأتهم بنهم.

عاش ألبارو بالفعل في بيت براغ، وكنت أهبط عليه في بعض الليالي لأرى، من جانب الميكروسكوب الآخر، أي تغيراتٍ جرت في هذا البناء الوجودي. لقد غديا ينامان في الغرفة اليسرى، وقد نقلا إليها أثاث غرفة نوم لوث، إذ وجداها فارغة عندما قررا في نهاية المطاف فتحها، ربما كان يشغلها شبح قرر ألّا يعلن عن نفسه.

على أي حال، ما بقيت مغلقة وفارغة الآن هي الغرفة اليمنى، كأنَّ من المستحيل أن تعمل الغرفتان في الوقت نفسه. دائمًا ما تخيب إحدى الرئتين.

ظلَّت ماريا خوسيه تستخدم جانبها الأيسر بمساعدة ألبارو، وكان ينظَر للعوراء المزيفة بحججٍ يقولها في ورش أدبية، أو هذا ما كنت أقوله كلَّما شعرت بنفسي مُقصيًا من علاقة أشعر بشيخوختي عند النظر إليها. رحت أعرف تفاصيل عن حياة لوث أكاسو، لكن ما من تفصيلة أفادتني في فصل الواقع عن الخيال: لم أستطع معرفة (ولا بذلت الجهد الكافي) إن كانت موظفة بالمالية مصابة بالاكتئاب أم أنَّها بغيَ مصابة بالإيدز، ربما لم تكن لا واحدة ولا الأخرى، كنت أتحرك بين الرغبة في معرفة وعدم معرفة ذلك؛ لأنَّي رغم قوة حضور الخيالي في حياتي، ما زلت أحتاج إلى المعلومة الموثَقة لأكتب حكايتها وحكايتنا من منظور ابن شرعي أعمل منه كصحفي، لكن كلَّما زادت رغبتي في أن أكون شرعيًا، يطوّقني أكثر شعور بأنّي ابن زنا.

كنت آكل بمفردي وأستمع لِشرائط تنسج فيها لوث أكاسو نفسها وتفك خيوطها، فيما كنت أسكَر بطريقةٍ منهجية، وأفكّر في أخي التوأم، أو في مصادفة اقتحم بها ألبارو وجودي. في أحد الأيام حكى لي أنّه حين تعارفنا شعر بنشوةٍ غريبة، كأنَّ الشيطان سار بجواره، لم يخطر لأيّ منا حينها أنَّ الشيطان يمكن أن يكون أنا. لِمَ لا؟

لِمَ لا، وقد كانت أفكاري شيطانية فعلًا: حافظتُ، مثلًا، على إعلانات قد نشرتها لوث في قسم الاتصالات بالجريدة، وفي منتصف الظهيرة كنت أتصل على البريد الصوتي، وأستمع لرسائل

واظبَ الرجال على إرسالها، وأنا من بينهم، إذ كنت أتصل أحيانًا على ذاك الرقم، وأترك تحذيرات عند استماعي لها لاحقًا كانت تبدو لي تحذيراتٍ من وراء القبر.

لم أكن أصعد دائمًا إلى بيت براغ: أحيانًا أكتفي بمراقبة النافذة المضيئة من أسفل. أخاف العودة إلى البيت، لكني لم أجد كذلك أي متعةٍ في صحبة بارات تديرها نساء.

تزوجت ابنتي في برلين، وأخبرتهم بعدم حضوري الزفاف، رغم أنّي أرسلتُ لها هدية أعادتها لي بعد عدة أيام مرفقة بملحوظة قاسية: «لا أعرفك، أيُّها العجوز». أكدت لي طليقتي أنَّ العبارة لإحدى شخصيات شكسبير حتى تسليني بسلوى لم أكن أحتاج إليها، إذ رغم أنّي ما أزال أرتدي ملابس كاجوال، إلا أنّي تقبّلتُ في النهاية أنّي لم أعد «ولدًا»، وأنَّ الروابط العاطفية بعائلتي الحقيقية، إن تبقّى أي رابطٍ، قد تفككت على مدار عملية بدايتي الجديدة.

وذات يوم رنَّ التليفون، وقالت لي ماريا خوسيه من الجانب الآخر للخط، لكن أيضًا من الجانب الآخر للحياة، إنَّ لوث أكاسو تركتْ وصية، وعيّنتني المنفذ لها.

ـ كيف عرفتِ ذلك؟ سألتُ مدهوشًا.

ـ تقصيتُ في «سجل الرغبات الأخيرة بوزارة العدل».

أدهشني أنَّ شخصًا يعيش في الجانب الأيسر قد خطر له فعل شيءٍ لم يعبر برأسي، وأنا الصحفي الخبير، وقلت لها ذلك.

ـ لذلك تكتب تحقيقات تقليدية... جيدة، لكنها تقليدية.

لا أقول إنّي لم أسمع من قبل عن «سجل الرغبات الأخيرة» هذا، لكن كيف أصدق أنَّ الدولة قادرة على تحقيق رغبات الموتى إن كانت عاجزة عن تحقيق رغبات الأحياء.

المسألة في النهاية أنّي استحلتُ المنفّذ أو الوصي (يا لها من كلمات!) على وصية غريبة تتضمّن نقل ممتلكات لوث أكاسو القليلة ـ شقة براغ، وحساب توفير ـ إلى ألبارو أبريل وماريا خوسيه. كان جليًّا أنّ تقسيم التركة لم يكن يحتاج إلى وصي، لكنه يحتاج إلى راوٍ، راوٍ عندما يحكي أيام لوث أكاسو الأخيرة، يملؤه الشعور بأنه يرتب حياته ذاتها.

امرأتان في براغ

«فكّرتُ أنّ ما لم يحدث في حياة الناس تأثيره أكبر مما قد حدث. كلُّ واحدٍ منّا يحمل في داخله «شيء لم»، بمعنى: شيئًا لم يحدث، ومع ذلك يمثّل أهميّة في حياته أكبر من «شيء نعم»، أي ما حدث بالفعل. ثمّة أناسٌ يخلصون بشكلٍ غامض لـ «شيء لم» ويتخلّون عن «شيء نعم». فكّرتُ في نفسي: كنتُ كاتب تحقيقاتٍ ماهرًا، لكن ما يمثّل أهميّة في حياتي لم تكن تحقيقاتٍ حصلتُ بها على جوائز، وإنّما رواية لا وجود لها. كلُّ واحدٍ منّا لديه جرحٌ ينضح بسبب «الشيء لم»، حتى إنّ «الشيء نعم»، مهما كان عظيمًا، لا يداويه».

****

بين كاتبة قرّرت أن تعيش وتكتب بجانبها الأيسر، وأرملة تبحث عمّن يكتب سيرتها، وكاتب يطارده سؤال الهويّة، يشيّد ميّاس متاهة سرديّة تنسج خيوطها من المفارقة والفكاهة السوداء. لا يقف الراوي خارج الحكاية، بل يتداخل مع الشخصيّات والأحداث في لعبة مرايا بارعة، حيث يتبادل السارد والأبطال الأدوار حتى يغدو القارئ نفسه جزءًا من هذا النسيج الملتبس. «امرأتان في براغ» رواية عن الوحدة والرغبة في الانتماء، وعن الحكايات التي نبتكرها لنفهم من نكون.

9 786030 587926

منشورات حياة